الإمام البخاري

وكتابه الجامع الصحيح

عامر الخميسي

شبكة الألوكة
www.alukah.net

www.alukah.net

الإمام البخاري

وكتابه الجامع الصحيح

د. عامر الخميسي

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

المقدمة

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بالإحسان إلى يوم الدين.

أما بعد: فهذه وريقات كتبتها عن الإمام البخاري -رحمه الله- هذا العلم الجليل، والمصنِّف النبيل، من أخذ العلم عن أهله، وترقى إلى أن اعترف الكل بفضله، ومناقبه مغنية عن الإطناب، ومآثره معروفة لا تحتاج إلى الإسهاب.

شيخ المحدثين الأفاضل، ونخبة العلماء الأماثل، من طار في الآفاق ذكره، وانتشر في الدنيا مقامه وقدره، وقد عرجت على نبل أخلاقه، وأشرتُ إلى جامعه الصحيح بلمحةٍ وإشراقة، عسى الله أن ينفع بهذه الأحرف كاتبها وقارئها إنه على كل شيء قدير وبالإجابة جدير..

وصلى اللهم وسلمَ على سيدنا محمد وآله وصحبه.

المؤلف

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

اسمه ومولده ونشأته وأسرته

هو الإمام المحدث الحافظ الفقيه المحدث، المتفنن النبيه، صاحب المكانة العالية، والسيرة الحسنة النامية، والمآثر اللطيفة، والمحامد الشريفة، فخر العلماء، وصدر المحدثين النجباء، من اشتهر اشتهار الشمس في رائعة النهار، وافتخرت به سمرقند على باقي الأمصار، العالم الذي ترقى على درج الجد والاجتهاد إلى أن بلغ رتبة الكمال، ألمعي الدهر، البركة الورع الصالح، عمدة الأمثال ونخبة ذوي الكمال، أمير المؤمنين في الحديث أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة ابن بَرْدِزْبَة [1].

مولده: ذكر الذهبي في تاريخ الإسلام أن مولد الإمام البخاري كان يوم الجمعة بعد الصلاة لثلاث عشرة ليلة خلت من شوال. سنة أربع وتسعين ومائة ببخارى، وكان والده عالما تقيا ورعا محدثا، و كان من خيار الناس – رضي الله عنه – حضر للأكابر، وسمع منهم كالإمام مالك، وحماد بن زيد، وصحب عبد الله بن المبارك، قال أحمد بن حفص: دخلت على أبي الحسن إسماعيل بن إبراهيم– والد الإمام البخاري– عند موته فقال لا أعلم في جميع مالي درهما من شبهة، فقال أحمد فتصاغرت إلي نفسي عند ذلك[2].

نشأته: تُوّفي أبوه –إسماعيل– وهو صغير فنشأ يتيما في حجر والدته، ثم ما لبث أن ذهبت عيناه في صغره[3] فرأت أمه إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام في المنام فقال لها: قد رد الله على ابنك بصره بكثرة دعائك له فأصبح وقد رد الله عليه بصره.[4]

([1]) " بردزبة" بباء موحدة مفتوحة، ثم راء ساكنة، ثم دال مهملة مكسورة، ثم زاي ساكنة، ثم باء موحدة، ثم هاء، وهو بالبخارية، ومعناه بالعربية الزراع، وبردزبه مجوسي مات عليها. وابنه المغيرة أسلم على يد اليمان البخاري الجعفي، والي بخارى انظر: تهذيب الأسماء واللغات للنووي 67/1 وانظر ترجمته الجرح والتعديل (191/7)، والثقات لابن حبان (113/9)، وتاريخ بغداد (4/2 – 37)، ووفيات الأعيان (188/4 – 191)، والمختصر فى أخبار البشر (48/2)، وسير أعلام النبلاء (391/12 – 471) برقم (171)، والوافي بالوفيات (206/2 – 209)، وتهذيب التهذيب (47/9 – 55)، وتقريب التهذيب (144/2)، والنجوم الزاهرة (25/3، 26) ..

([2]) تاريخ الإسلام 140/6

([3]) ذهب بصره في حادثتين، مرة وهو صغير في هذه الحادثة، ومرة وهو كبير في خراسان، فقد أورد الذهبي عن أحد أصحاب البخاري قال: سَمِعْتُ الْبُخَارِيّ يَقُولُ: لمّا بلغت خراسان أُصِبتُ ببصري، فعلّمني رَجُل أن أحلق رأسي وأغلّفه بالخطميّ، ففعلت، فردّ اللّه عَلِيّ بصَرِيّ. تاريخ الإسلام للذهبي 140/6

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

وكانت ولادته ونشأته بمدينة بخارى[5] من خراسان، موطن آبائه وأجداده، وهي مدينة كبيرة، فتحها المسلمون بعد منتصف القرن الأول للهجرة. وكانت عاصمة الملوك السَّامانيين قبل الفتح الإسلامي، وقد ولد البخاري وهي مركز علمي هام، وحاضرة من حواضر الإسلام.

ولم يذكر لنا التاريخ من أجداد البخاري أبعد من جده الثالث "بَرْدِزْبَه" فهو رأس أسرته فيما نعلم ومنتهى نسبه عند أهل التاريخ.

اختلف المؤرخون في أصل البخاري هل هو عربي أم فارسي أم تركي فقيل إنه تركي أصله من الأوزبك وهو ما لمح له عدد من المؤرخين مثل حمد الله المستوفي وأبو سعيد الجرديزي وعبد الرزاق السمرقندي وإغناطيوس كراتشكوفسكي وفاسيلي بارتولد[6].

وقيل كان بَرْدِزْبَه هذا فارسي الأصل عاش ومات مجوسي الدين، وأول من أسلم من أجداد البخاري "المُغيرة بن بَرْدِزْبَه" كان إسلامه على يد اليمان الجعفي والي بخارى آنذاك، فانتمى إليه بالولاء، وانتقل في أولاده، وأصبح الجعفي نسبًا له ولأسرة البخاري.[7]

وقيل هو عربي[8] أصله من الجعفيين – وهذا هو الأقرب للصواب- فقد ذكر عدد من العلماء أن جدّه الأكبر هو الأحنف الجعفي وأن «بَرْدِزبَه» صفة وليس اسماً وتعني «الفلاح» وهو ما تعود العرب عليه في البلدان

([4]) تاريخ دمشق لابن عساكر 56/52

([5]) بخارى هي الآن تابعة لجمهورية أوزبكستان في آسيا الوسطى. وكانت سابقا تحت نفوذ الاتحاد السوفييتي.

[6] الإمام البخاري – عبد الستّار الشيخ (طبعة دار القلم: ج1 ص122)

[7] لبيد إبراهيم أحمد، حياة البخاري الاجتماعيةنسخة محفوظة 04 مارس 2016 على موقع واي باك مشين.

[8] للتحقيق في هذه المسألة نجد أن جده الأول إبراهيم بن المغيرة والد إسماعيل فإن أخباره بقيت مجهولة فليس له ذكر في كتب التاريخ أما جده الأعلى بردزبة فقيل كان مجوسياً مات عليها وهذه رواية وحيدة، قد لا تصح لان هناك من يرجح انه من أصل عربي، وان كانت اخبار حفيده (ابراهيم) مجهولة كما ذكر فمن اين لهم باخبار جده الاعلى . ويبدو أن قول ابن عدي في بردزبة أنه كان مجوسياً ومات عليها " هو الذي بنى عليه من قال بان البخاري كان فارسيا، "كون الفرس كانت تدين بالمجوسية " . أما ابنه المغيرة فقد أسلم على يد اليمان بن أخنس الجعفي والي بخارى وهذا قول ابن عدي نفسه وهناك من ضعف هذه الرواية، فقيل للبخاري جعفي لان جده المغيرة صار ولاءه ولاء الإسلام للجعفيين وليس ولاء فرد أو قبيلة، ورواية أنه عربي من الجعفيين وهو ما رجحه كل من الدكتور مصطفى جواد و الدكتور ناجي معروف والدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور صالح أحمد العلي والدكتور حسين علي محفوظ، في

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

الأعجمية، وممن اعتمد هذا الرأي ابن عساكر، وابن حجر العسقلاني، وتاج الدين السبكي، وزين الدين العراقي، وابن تغري،، ورجّحه عدد من المعاصرين منهم مصطفى جواد، وناجي معروف، وعبد العزيز الدوري، وصالح أحمد العلي، وحسين علي محفوظ، وفاروق عمر فوزي ولبيد إبراهيم أحمد العبيدي.[9]

و أما إبراهيم بن المغيرة "جد البخاري" فلا نعلم شيئًا من أخباره غير انتسابه للمغيرة.

وأما والد البخاري "إسماعيل بن إبراهيم"، فقد كانت حياته مطلع النباهة لهذِه الأسرة الكريمة الطيبة التي أنجبت لنا إمام المسلمين وأميرهم في الحديث، وقد غير إسماعيل سير آبائه في الحياة، وشق طريقه الجميل إلى الإسلام، بل وشارك بقوة في الحياة العلمية مختارًا أهم جوانبها في عصره وهي: دراسة حديث الرسول – صلى الله عليه وسلم – وتدريسه والعيش معه وأكرم بها من حياة طيبة تنفح بالشذى.

كان والد البخاري رحمه الله تقيًا صالحا ورعا عالمًا محدثًا، اشتهر بين الناس ورحل كثيرًا إلى العلماء وأهل الحديث فحدث عنهم وأخذ منهم، ثم تحلق حوله طلبة العلم فأفادهم وعلمهم ونشر الحديث بينهم، وقد وروى عنه العراقيون منهم: أحمد بن حفص، وأحمد بن جعفر، ونصر بن الحسين وغيرهم.

ويكفي هذا الوالد شرفًا وفخرًا، أن الله أجزل مكافأته وعطاءه على فضله وعفته وجهده، فرزقه ولدًا صالحا محدثا ملأ الدنيا علما هو الإمام البخاري.

وعندما مات الوالد عكفت الأم على تربيته التربية الصالحة فكانت نعم الأم فنشأ نشأة صالحة مباركة بين يدي أمه وقد كانت حريصة على تعليمه فدفعت به إلى الجلوس بين يدي العلماء من صغره.

استقبل البخاري حياتَه في أُسْرةٍ ثريةٍ متدينةٍ فاضلةٍ، وقد كفلته أُمُّه ورعته من بعده وتابعت سيره واهتمت به اهتماما بالغا، وكانت امرأةً تقيةً صالحةً لا تقل تُقى وورعًا عن والده، حتى عدَّها المؤرخون من ذوي الكرامة والولاية.

ندوة علمية عقدت بالمجمع العلمي العراقي ببغداد في ستينيات القرن الماضي وهو ما نميل أليه ونأخذ به البخاري، انظر: مجددا، . فلاح حسين جليل (رسالة ماجستير، كلية التربية، الجامعة المستنصرية، 1988م)، 16.

[9] عروبة العلماء المنسوبين للبلدان الأعجمية، ناجي معروف، مجلد 2، ص43

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

"أُلهم الحديث في المكتب وله عشر سنين أو أقل، فلما طعن في ست عشرة سنة حفظ كتب ابن المبارك ووكيع" [10].

وقد كان نبيها ذكيا يتوقد ذكاء كأنه شعلة نار من صغره، فقد قال سعيد بكر بن منير": سمعت محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة الجعفي يقول: كنت عند أبي حفص أحمد بن حفص أسمع كتاب «الجامع» - جامع سفيان- في كتاب والدي، فمر أبو حفص على حرف و لم يكن عندي ما ذكر، فراجعته فقال كذلك، فراجعته الثانية فقال كذلك، فراجعته الثالثة فسكت سويعة، ثم قَالَ: من هذا؟ قالوا هذا ابن إسماعيل بن إبراهيم بن بردزبة، فقال أبو حفص: هو كما قَالَ، واحفظوا فإن هذا يوما يصير رجلًا".[11]

وللعلم فهذه الحادثة وهو ابن إحدى عشرة سنة فانظر كيف تفرس فيه شيخه وهو في هذا السن وكيف عرف نبوغه وما سيصير إليه..

ثم خرج مع أخيه أحمد وأمه إلى مكة وهو في السادسة عشر من عمره فلما حج رجع أخوه بأمه إلى بُخارى فمات بها، وكان أخوه أسن منه وأقام هو بمكة لطلب الحديث [12].

وقد كانت رحلته هذه مباركة إذ كان يتحرق شوقا وصبابة لبيت الله الحرام وللقاء العلماء الأعلام فاستجاب الله له دعوته وحقق له رجاءه بالوصول إلى البيت العتيق ومجاورة الحرم للاستفادة من المحدثين والجلوس بين أيديهم.

ثم ارتحل إلى المدينة المنورة على صاحبها أفضل الصلاة والسلام فجالس علماءها واستنشق من نسائمها المباركة وزاده حبًّا لها تلك الذكريات العطرة للحبيب صلى الله عليه وسلم وأصحابه وهم يمشون فيها ويتنقلون بين جنباتها والوحي يترل على ساكنها صباح مساء فحبب إليه الاشتغال بحديث الحبيب صلى الله عليه وسلم ومجاورته وملازمة أقرب مكان للروضة المطهرة حيث تنثال عليه ألطاف الجنة فكأنه يشم عبيرها ويهيم بروحها وريحانها.

([10]) انظر: تاريخ بغداد 2 / 6 - 7 وسير أعلام النبلاء 12 / 393 وتهذيب الكمال 16 / 89

([11]) تاريخ بغداد 11/2

([12]) تاريخ دمشق 57/52

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

ولما طعن في ثماني عشرة سنة صنف كتاب قضايا الصحابة والتابعين وأقاويلهم، وصنف التاريخ الكبير إذ ذاك عند قبر النبي – صلى الله عليه وسلم – في الليالي المقمرة، وقل اسم في التاريخ إلا وله عنده قصة، إلا أنه كره تطويل الكتاب.[13]

فلله تلك الليالي المقمرة الجميلة البهية وهو يبيت بجانب قبر النبي صلى الله عليه وسلم يكتب التاريخ العطر الفواح ويحبر أقضية الصحابة ويسطر فقههم، فكأن حاله وهو يتذكر الحبيب:

وذكركَ في قلبي يلذّ وفي فمي ... كأني أحسو من تذكُّرك الشَّهدا

وقد كان للإمام البخاري صلاح ظاهر، ودأب على السنة باهر، وجد واجتهاد، واشتغال عجيب بالعلم فكل وقته جعله وقفا للعلم ولمجالسة العلماء والتأليف، وقد نال من بركة مجاورة الحبيب صلى الله عليه بركة عظيمة، وتهيأ له المطلوب، ونال المرغوب، فسما في سلم المعالي، وارتقى في درجات العلم إلى أن أصبح إماما يشار إليه بالبنان.

([13]) تاريخ بغداد 7/2

www.alukah.net

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

رحلته في طلب العلم ومشايخه

رحل كثيرًا وطوف بالأقطار والأقاليم والحواضر العلمية، فلقي أغلب المحدثين في زمانه، وأخذ عن الأئمة والشيوخ المشهورين في عصره، فاتسعت مداركه وكثرت روايته للحديث، وكان ينتقي شيوخه ويتحرى في اختيارهم واضعًا لنفسه خطة ونهجًا في ذلك، حتى لا يأخذ إلا عن الثقات..

وقد كانت أول رحلة للإمام البخاري إلى مكة سنة عشر ومائتين، وقد أدرك عبد الرزاق وأراد أن يرحل إليه وكان يمكنه ذلك فقيل له إنه مات فتأخر عن التوجه إلى اليمن، ثم تبين أن عبد الرزاق كان حيا فتحسر أشد التحسر وصار يروي عنه بواسطة، ثم ارتحل بعد أن رجع من مكة إلى سائر مشايخ الحديث في البلدان التي أمكنته الرحلة إليها.

في كل بلدة كان يترل فيها البخاري يهرع إلى علمائها يستقي منهم الفوائد، ويثني ركبتيه أمامهم طالبا متواضعا محبا شغوفا للعلم وقد كثر مشايخه ففاقوا الألف، قال جعفر بن محمد القطان إمام الجامع بكرمينية سمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول كتبت عن ألف شيخ وأكثر عن كل واحد منهم عشرة آلاف وأكثر ما عندي حديث إلا وأذكر إسناده.

وقال محمد عبد الرحمن بن محمد بن عبد الرحمن البخاري: سمعت أبا عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري يقول لقيت أكثر من ألف رجل من أهل العلم أهل الحجاز ومكة والمدينة والكوفة والبصرة وواسط وبغداد والشام ومصر لقيتهم كرات أدركتهم وهم متوافرون أكثر من ست وأربعين سنة أهل الشام ومصر والجزيرة مرتين وبالبصرة أربع مرات في سنين ذوي عدد وبالحجاز ستة أعوام ولا أحصي كم دخلت الكوفة وبغداد مع محدثي أهل خراسان منهم المكي بن إبراهيم، ويحيى بن يحيى، وقتيبة بن سعيد، وشهاب بن معمر.

وبالشام سمع محمد بن يوسف الفريابي، وأبا مسهر عبد الأعلى بن مسهر، وأبا المغيرة عبد القدوس بن الحجاج، وأبا اليمان الحكم بن نافع ومن بعدهم عدة كثيرة.

وبمصر سمع يحيي بن بكير، وأبا صالح كاتب الليث بن سعد، وسعيد بن أبي مريم، وأصبغ بن الفرج، ونعيم بن حماد.

www.alukah.net

وبمكة عبد الله بن يزيد المقرئ، والحميدي وسليمان بن حرب قاضي مكة، وأحمد بن محمد الأزرقي.

وبالمدينة إسماعيل بن أبي أويس، ومطرف بن عبد الله، وعبد الله بن نافع الزبيري، وأحمد بن أبي بكر الزهري أبا مصعب، وإبراهيم بن حمزة الزبيري، وإبراهيم بن المنذر الحزامي.

وبالبصرة أبا عاصم الضحاك بن مخلد الشيباني، وأبا الوليد هشام بن عبد الملك والحجاج بن المنهال وعلي بن عبد الله بن جعفر المديني.

وبالكوفة أبا نعيم الفضل بن دكين، وعبيد الله بن موسى، وأحمد بن يونس، وقبيصة بن عقبة وابن نمير، وعبد الله وعثمان ابني أبي شيبة.

وببغداد أحمد بن حنبل ويحيى بن معين وأبا معمر، وأبا عبيد القاسم بن سلام.

ومن أهل الجزيرة عمرو بن حماد الحراني.

وبواسط عمرو بن عون، وعاصم بن علي، وبمرو صدقة بن الفضل، وإسحاق بن إبراهيم الحنظلي...[14]

هؤلاء أبرز مشايخ الإمام البخاري الذين رحل إليهم واستفاد من علمهم وجالسهم وكتب عنهم وتأثر بأخلاقهم، واقتدى بسيرتهم وكلهم علماء فقهاء محدثون وحسبك أنهم أعلم أهل زمانهم، وأفاضل أهل دهرهم.

وقد تحسر كثيرا أكثر ما تحسر على لقاء الإمام العلم الكبير المحدث عبدالرزاق الصنعاني لكن عوض الله عنه بتلميذ عبدالرزاق الإمام أحمد بن حنبل فقد جالسه واستفاد منه وعرض عليه صحيحه بعد أن انتهى منه وفي هذا يقول محمد بن يوسف بن مطر:

" سمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول دخلت بغداد آخر ثمان مرات كل ذلك أجالس أحمد بن حنبل فقال لي في آخر ما ودعته يا أبا عبد الله تترك العلم والناس وتصير إلى خراسان قال أبو عبد الله فأنا الآن أذكر قوله"[15].

يعني كيف تترك بغداد وهي حاضرة العالم الإسلامي وموئل طلبة العلم وتغادرها والناس بحاجة إليك..

وقد أُلِّف في شيوخه عدة كتب، بعضها خاص بشيوخه، وبعضها خاص برجال الصحيح، أو رجال الصحيحين، إضافةً إلى رجال الكتب الستة.

([14]) انظر: تاريخ دمشق 59/52

([15]) انظر: تاريخ دمشق 60/52

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

تصدره للتدريس والتعليم

كان البخاري نابغة من صغره فقد تعلم وعلم مبكرا بسبب عقليته الفذة وحافظته القوية واستحضاره للنصوص وحفظه لها وجمعه بين الفقه والحديث والرجال والعلل والسير، فقد قال أبو بكر بن أبي عتاب الأعين:" كتبنا عن محمد بن إسماعيل وهو ابن ثمانية عشر عاما أو دونها"[16].

"وكان أهل المعرفة يغدون خلفه في طلب الحديث وهو شاب حتى يغلبوه على نفسه ويجلسوه في بعض الطريق فيجتمع عليه ألوف أكثرهم ممن يكتب عنه وكان شابا"[17].

وقال عن نفسه: "مَا جلَسْتُ لِلْحَدِيْثِ حَتَّى عرفْتُ الصَّحِيْحَ مِنَ السَّقيمِ، وَحَتَّى نظرتُ فِي عَامَّةِ كُتُبِ الرَّأْيِ، وَحَتَّى دَخَلْتُ البَصْرَةَ خَمْسَ مَرَّاتٍ أَوْ نحوهَا، فَمَا تركتُ بِهَا حَدِيْثاً صَحِيْحاً إِلاَّ كَتَبْتُهُ، إِلاَّ مَا لَمْ يَظهر لِي".[18]

"وكان كلما دخل بلدا اجتمع عليه أهلها ليستفيدوا من علمه فلقد حكى عن نفسه قائلا: دخلت بلخ فسألوني أن أملي عليهم لكل من كتبت عنه فأمليت ألف حديث عن ألف شيخ".[19]

وهذا فيه من قوة الذاكرة مع جمال الإبداع وحسن الابتكار الشيء الجميل والمبهر يتنقل بمستمعيه بين الشيوخ والعلماء قاطفا من كل حديقة زهرة ومن كل بستان ثمرة وكأنه بلبل غريد يطير بين الأفياء متحفا لهم بكل جديد وبديع.

وقد كان عشرات الآلاف من الطلاب يحيطون به في كل بلد بغية سماعه وكتابة ما ينطق به فقد قال إسحاق بْن أَحْمَد بْن خلف:" سمعت أبا علي صالح ابن محمد البغدادي يقول: كان محمد بن إسماعيل يجلس ببغداد، وكنت أستملى له، ويجتمع في مجلسه أكثر من عشرين ألفا .

([16]) انظر: تاريخ بغداد 2 / 6 – 7 وسير أعلام النبلاء 12 / 393 وتهذيب الكمال 16 / 89

([17])انظر: طبقات الحنابلة " 1 / 277، و" تهذيب الأسماء واللغات " 1 / 70 / 1، و" طبقات السبكي " 2 / 217.

([18]) سير أعلام النبلاء 416/2

([19]) تاريخ الاسلام140/6

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

وَقَالَ محمّد ابن يوسف بن عاصم: رأيت لمحمد بن إسماعيل ثلاثة مستملين ببغداد، وكان اجتمع في مجلسه زيادة على عشرين ألف رجل"[20] .

وهذا يوسف بن موسى المروروذي يقول: كنت بالبصرة في جامعها إذ سمعت مناديا ينادي يا أهل العلم لقد قدم محمد بن إسماعيل بالبخاري فقاموا في طلبة وكنت معهم فرأينا رجلا شابا لم يكن في لحيته شيء من البياض يصلي خلف الأسطوانة فلما فرغ من الصلاة أحدقوا به وسألوه بأن يعقد لهم مجلس الإملاء فأجابهم إلى ذلك، فقام المنادي ثانيا فنادى في جامع البصرة لقد قدم أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري فسألناه بأن يعقد مجلس الإملاء فقد أجاب أن يجلس غدا في موضع كذا، قال فلما أن كان بالغداة حضر الفقهاء والمحدثون والحفاظ والنظارة حتى اجتمع قريب من كذا وكذا ألف، فجلس أبو عبد الله محمد بن إسماعيل للإملاء فقال قبل أن آخذ في الإملاء قال لهم:

يا أهل البصرة أنا شاب وقد سألتموني أن أحدثكم وسأحدثكم بأحاديث عن أهل بلدكم تستفيدون الكل قال فبقى الناس وتعجبوا من قوله ثم أخذ في الإملاء[21].

وهذا صالح بن محمد يقول:" حزرت في مجلس محمد بن إسماعيل بضعة عشر أو خمسة عشر ألفا"[22] .

وأبو سعيد الحسن بن محمد الذهبي يقول حزرت في مجلس محمد بن إسماعيل عشرين ألفا.[23]

وقد أخذ عنه الصحيح تسعون ألفا[24].

فتأمل معي هذه الجموع التي كانت تحيط به وتأخذ عنه وتكتب ما يقول فأي رفعة نالها هذا الإمام وأي مكانة سما إليها وأي مجد أحرزه!!

([20]) تاريخ بغداد20/2

([21]) تاريخ دمشق 67/52

([22]) تاريخ دمشق 90/52

([23]) تاريخ دمشق 90/52

([24]) تاريخ بغداد 10/2

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

قوة حافظته

وأما ذكاؤه وسعة حفظه وسيلان ذهنه فقد كان يحفظ وهو صبي سبعين ألف حديث سردا.

وروي أنه كان ينظر في الكتاب مرة واحدة فيحفظ ما فيه من نظرة واحدة.

وقال محمد بن أبي حاتم عن زميلين للإمام البخاري قالا: "كان البخاري يختلف معنا إلى السماع وهو غلام فلا يكتب حتى أتى على ذلك أيام، فكنا نقول له، فقال: إنكما قد أكثرتما علي فاعرضا علي ما كتبتما، فأخرجنا إليه ما كان عندنا فزاد ذلك على خمسة عشر ألف حديث فقرأها كلها عن ظهر قلبه حتى جعلنا نحكم كتبنا من حفظه، ثم قال: أترون أني أختلف هدرًا وأضيع أيامي عند ذلك عرفا أنه لا يتقدمه أحد".[25]

فهو منذ أن كان فتى يافعا كان حفظه يدعوك للعجب وقد قال محمد بن أبي حاتم: سمعت سليمان بن مجاهد يقول كنت عند محمد بن سلام البيكندي فقال لي: لو جئت قبل لرأيت صبيا يحفظ سبعين ألف حديث، قال: فخرجت في طلبه فلقيته، فقلت أنت الذي تقول أنا أحفظ سبعين ألف حديث قال: نعم وأكثر ولا أجيبك بحديث عن الصحابة والتابعين إلا من عرفت مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم، ولست أروي حديثا من حديث الصحابة والتابعين إلا ولي في ذلك أصل أحفظه حفظا عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله – صلى الله عليه وسلم[26].

وقد أبدع الشاعر حين وصفه بقوله:

مَا للْبُخَارِيّ نَظِير فِي جلالته ... وَمثله حَافظ مَا أمسك القلما

قد كَانَ وَهُوَ صَغِير السن مُجْتَهدا ... وَكَانَ ذَا همة قد فاقت الهمما

كَأَنَّمَا صَدره بَحر يموج ذكا ... كَأَنَّمَا ذهنه غيث قد انسجما

([25]) طبقات الحنابلة " 1 / 276، 277، و" تاريخ بغداد " 2 / 14، 15، و" طبقات السبكي " 2 / 217، و" مقدمة الفتح ": 479.

([26]) تاريخ الاسلام 140/6.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

لقد كان كالغيث إذا انسكب، والسيل إذا جرى، والبرق إذا لمع، كان فريدا في دهره، وفلتة من فلتات زمانه، وما مثله أحد في حفظه وقوة تذكره، ومن خلال مروري على التاريخ قراءة ونظرا وتأملا لم أجد حافظا عنده ذاكرة فولاذية كالإمام البخاري..

فكان رحمه الله قوي الذاكرة سريع الحفظ ذكر عنه المطلعون على حاله ما يتعجب منه الأذكياء أصحاب الحفظ والإتقان فضلا عمن سواهم فقد قال أبو بكر الكلذواني: "ما رأيت مثل محمد بن إسماعيل كان يأخذ الكتاب من العلم فيطلع عليه إطلاعة، فيحفظ عامة أطراف الحديث من مرة واحدة".

وروي عن محمد بن أبي حاتم الوراق النحوي قال: قلت لأبي عبد الله محمد ابن إسماعيل ـــ يعني البخاري ـــ: تحفظ جميع ما أدخلت في المصنف، قال: لا يخفى على جميع ما فيه.

يعني أنه يحفظ صحيحه عن ظهر قلب..

وكان يقول عن نفسه: أحفظ مائة ألف حديث صحيح، وأحفظ مائتي ألف حديث غير صحيح. وقال أخرجت هذا الكتاب يعني الجامع الصحيح من نحو ستمائة ألف حديث[27].

وقال تذكرت يوما في أصحاب أنس فحضرني في ساعة ثلاثمائة نفس، وصنّف كتابا في الهبة فيه ما يقرب من خمسائة حديث. [28]

وعندما قَالَ لَهُ بَعْضهُم: بَلَغَنِي أَنَّهُ قَالَ لَكَ: لاَ تُحْسِنُ تصلِي، فَكَيْفَ تَجْلِسُ؟

فَقَالَ: لَو قِيْلَ لِي شَيْءٌ مِنْ هذَا مَاكُنْت أَقومُ مِنْ ذَلِكَ المَجْلِسِ حَتَّى أَروِي عَشْرَةَ آلاَفِ حَدِيْثٍ، فِي الصَّلاَةِ خَاصَّةً[29].

([27]) " طبقات الحنابلة " 1 / 275، و" تاريخ بغداد " 2 / 25، و" تهذيب الأسماء واللغات " 1 / 68 / 1، و" تهذيب الكمال ": 1172، و" طبقات السبكي " 2 / 218، و" مقدمة الفتح ": 488.

([28]) سير أعلام النبلاء/411

([29]) سير أعلام النبلاء412/2

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

فإذا كان في ركن واحد من أركان الإسلام يستطيع أن يسرد عشرة آلاف حديث فكم مجموع ما يسرده على جميع أركان الإسلام؟

إنه يستطيع أن يستشهد على أركان الإسلام بما لا يقل عن خمسين ألف حديث فهل يستطيع أبناء المسلمين اليوم أن يسرد الواحد منهم خمسة أحاديث فقط على كل ركن من أركان الإسلام؟

بل طلابنا الذين يترددون كل يوم على المدارس يتعلمون، وشباب جامعاتنا في تخصصاتهم الإسلامية واللغوية والإنسانية والتربوية هل يستطيع الواحد منهم أن يسرد عشرة أحاديث فقط على كل ركن من أركان الإسلام؟

ثم كيف يجرؤ اليوم كثير من المشككين بالسنة بالطعن في صحيح الإمام البخاري ومصنفه حجة لا يبارى ولا يقف أمامه أحد في حفظ الحديث والعناية بالنصوص والتدقيق فيها والتحري في ألفاظها؟

إن كل من لقي البخاري جزم أنه في حفظه وقوة استيعابه لا يشابهه أحد، ولا يماثله أحد ولا يجاريه في ذاكرته إنسان، ولعل من أخباره العجيبة ما نقل أنه كان بسمرقند أربعمائة ممن يطلبون الحديث فاجتمعوا سبعة أيام وأحبوا مغالطته فأدخلوا إسناد الشام في إسناد العراق وإسناد العراق في إسناد الشام وإسناد الحرم في إسناد اليمن فما استطاعوا مع ذلك أن يوقعوه في سقطة لا في الإسناد ولا في المتن.[30] وأعجب منها ما نقله ابن حجر بإسناده أن البخاري قدم بغداد فاجتمع أصحاب الحديث وعمدوا إلى مائة حديث فقلبوا متونها وأسانيدها وجعلوا متن هذا الإسناد لإسناد آخر وإسناد هذا المتن لمتن آخر، ودفعوا إلى كل واحد عشرة أحاديث ليلقوها على البخاري في المجلس امتحانا، فاجتمع الناس من الغرباء من أهل خراسان وغيرهم ومن البغداديين، فلما اطمأن المجلس بأهله انتدب أحدهم فقام وسأله عن حديث من تلك العشرة فقال: لا أعرفه فسأله عن آخر فقال لا أعرفه حتى فرغ العشرة فكان الفقهاء يلتفت بعضهم إلى بعض ويقولون الرجل فهم، ومن كان لا يدري قضى عليه بالعجز، ثم انتدب آخر ففعل كفعل الأول والبخاري يقول لا أعرفه إلى أن فرغ العشرة أنفس، وهو لا يزيدهم على لا أعرفه فلما علم أنهم فرغوا التفت إلى الأول فقال: أما حديثك الأول فقلت كذا وصوابه كذا، وحديثك الثاني كذا وصوابه كذا، والثالث والرابع على الولاء حتى أتى على تمام

([30]) تاريخ الاسلام 140/6

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

العشرة فرد كل متن إلى إسناده وكل إسناد إلى متنه، وفعل بالآخرين مثل ذلك فأقر الناس له بالحفظ وأذعنوا له بالفضل.[31]

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله معلقا على هذه القصة: "هنا يُخضع للبخاري فما العجب من رده الخطأ إلى الصواب فإنه كان حافظا، بل العجب من حفظه للخطأ على ترتيب ما ألقوه عليه من مرة واحدة".[32]

قلتُ: لقد ظهر هنا فوق ما كانوا يتوقعون، وأذهلهم برد الأحاديث إلى أسانيدها وحفظ أخطائهم التي ربما مكثوا في التحضير لها أياما طوالا وحفِظَها هو من أول ما سمعها فما تقول في رجل يحفظ من أول نظرة ومن أول سماع..!!

وقد صور أحد الشعراء هذه الواقعة بأبيات بديعة يقول فيها[33]:

وَألف شيخ لَهُ فِي الأَرْض وَهُوَ على ... تِلْكَ الْمَشَايِخ فِي علم الحَدِيث سما

كم قلبوا من أَسَانِيد الحَدِيث لَهُ ... بالْأَمْس واقتسموها بَينهم قسما

فَردهَا مثل مَا كَانَت وصححها ... وَصَارَ فِي علمه قدامهم علما

وَمَا أضرّ بِهِ الْمَكْر الَّذِي مكروا ... لَكِن أقرّ لَهُ بِالْفَضْلِ من علما

وكل حفاظ بَغْدَاد لَهُ اعْتَرَفُوا ... لما زكا بالذكا مَحْفُوظَه ونما

وقال الإمام البخاري رحمه الله: ذاكرني أصحاب عمرو بن علي الفلاس بحديث، فقلت: لا أعرفه فسُروا بذلك، وصاروا إلى عمرو فأخبروه، فقال: حديث لا يعرفه محمد بن إسماعيل ليس بحديث.

وقال الحافظ أَحمد بن حَمدون:" رأيت البخاري في جنازة، ومحمد ابن يحيى الذهلي يسأله عن الأسماء والعلل، والبخاري يمر فيه مثل السهم كأنه يقرأ {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ}.[34]

([31]) تاريخ الإسلام (6/ 140)

([32]) فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر 486/1

([33]) الأبيات مأخوذة من كتاب الحطة في ذكر الصحاح الستة وهي للشيخ عَلَاء الدّين بن أيبك الدِّمَشْقِي ص118.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

وهو مع هذا متواضع لا يفتخر على القوم بحفظه وقوة ذاكرته ولا يتعالى على أحد بما أعطاه الله من موهبة قوية فقد قال علي بن الحسين بن عاصم البيكندي: قدم علينا محمد بن إسماعيل، فاجتمعنا عنده و لم يكن يتخلف عنه من المشايخ أحد، فتذاكرنا عنده. فقال رجل من أصحابنا- أراه حامد بن حفص-: سمعت إسحاق بن راهويه يقول: كأني أنظر إلى سبعين ألف حديث من كتابي. قَالَ فقال محمد بن إسماعيل: أو تعجب من هذا؟ لعل في هذا الزمان من ينظر إلى مائتي ألف حديث من كتابه. وإنما عني به نفسه [35] .

فانظر إلى هذه الذاكرة العجيبة التي أكرمه الله بها فكأن أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم تعرض بين عينيه يأخذ منها ما يشاء، وانظر إلى هذا التواضع إذ لم يخبر عن نفسه أنه هو المقصود.

لقد كان آية من آيات الله في الحفظ ونادرة من نوادر الزمان في الاستذكار على اجتهاد عنده ونهمة في الحفظ والاعتكاف على تكرار النصوص.

([34]) تغليق التعليق لابن حجر 419/5

([35]) تاريخ بغداد 25/2

www.alukah.net

اجتهاده

لقد كان آية من آيات الله في الاجتهاد فهو يقعد نهاره كله على الحفظ والتنصيف وثني كذلك بليله دون كلل أو ملل، فلقد قال محمد بْن يوسف الْبُخَارِيّ : كنتُ عند محمد بْن إِسْمَاعِيل بمنزله ذات ليلة، فأحصيت عَلَيْهِ أنّه قام وأسرجَ يستذكر أشياء يُعلّقها فِي لَيْلَةٍ ثمان عشرة مرّة.

وقال محمد بْن أَبِي حاتم الورّاق: "كَانَ أبو عبد الله إذا كنتُ معه فِي سفر يجمعنا بيتٌ واحدٌ إلَا فِي القَيْظ أحيانًا. فكنت أراه يقوم فِي لَيْلَةٍ واحدةٍ خمس عشرة مرّة إلى عشرين مرّة، فِي كلّ ذَلِكَ يأخذ القُدّاحة فيُوري نارًا ويُسرج، ثمّ يُخرج أحاديث فيُعلِّم عليها، ثمّ يضع رأسه. وكان يُصلّي وقت السَّحَر ثلَاث عشرة ركعة. وكان لَا يوقظني فِي كلّ ما يقوم، فقلتُ لَهُ: إنّك تحمل عَلى نفسك فِي كلّ هذا ولا تُوقظني! قَالَ: أنتَ شابّ ولا أحب أن أفسد عليك نومك".[36]

لقد يصحو وينام على استذكار الحديث فانظر كيف أنه يستيقظ في ليلة واحدة ثمانية عشر مرة ليشعل السراج ثم يكتب ما استذكره أثناء استلقائه على فراشه، فكم نحن مقصرون في زمن الكهرباء التي لا يحتاج منا تشغيلها سوى لحظة واحدة، وكم نحن مقصرون وكتب الإسلام كلها بين أيدينا وبأرقى الطباعة وأجود الورق، إنه زمن الخمول العلمي على توفر كل شيء بين أيدينا..

ولقد كان المحفز للإمام البخاري هو أنه يتذكر دوما أنه يعيش مع النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فقد قال أحد طلابه يوما :..وَأَملَى يَوْماً عليَّ حَدِيْثاً كَثِيْراً فَخَافَ مَلاَلِي فَقَالَ: طِبْ نَفْساً فإِن أَهْلَ الملاَهِي فِي

([36]) تاريخ بغداد 140/6

www.alukah.net

ملاَهِيهِم، وَأَهْلَ الصّنَاعَاتِ فِي صنَاعَاتِهِم، وَالتُّجَّارَ فِي تجَارَاتِهِم، وَأَنْتَ مَعَ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَأَصْحَابِهِ.[37]

وهذه الكلمة لو تدبرتها جامعة نافعة ماتعة وهي رأس في التحفيز وصناعة الهمة لدى الطالب وتدريبه على القوة فمن كان متذكرا أنه مع النبي صلى الله عليه وسلم فهو مستمتع بالعيش معه، وكما أن أهل الملاهي في متعة مع ملاهيهم، فهو في روضة الحبيب صلى الله عليه وسلم وأصحابه.

وقد شك بعض الناس في القدرات الخارقة لدى الإمام البخاري فزعم بعضهم أنه يستخدم علاجا ولديه من العقاقير الطبية ما تعينه على ذلك فسألوه عن ذلك فأعطاهم الوصفة التي يستخدمها.

قَالَ محمد بْن أَبِي حاتم: "بلغني أنّ أَبَا عَبْد اللَّه شربَ البلَاذُرَ للحِفْظ، فقلت لَهُ: هَلْ من دواء يشربه الرجل للحِفْظ؟ فقال: لَا أعلم. ثمّ أقبل عَلِيّ وقال: لَا أعلم شيئًا أنفع للحِفْظ من نَهْمة الرجل ومداومة النَّظر"[38].

نهمة الرجل: أي حبه الجامح للشيء ورغبته فيه رغبة قوة، وفلان أكل بنهم أي بشدة فكل ما أمامه التهمه من الجوع، فلو أنك جائع منذ يومين لم تأكل شئيا ثم عرض عليك أشهى الطعام على مائدة قد تلونت بكل ما هو لذيذ كيف مشاعرك حينها ورغبتك الجامحة في التهام هذه السفرة؟؟

هكذا كان يحفظ الإمام البخاري فأحاديث النبي صلى الله عليه وسلم يلتهمها التهاما كما يلتهم الجائع الطعام ..

وأما دوام النظر فهو التكرار وأن لا تنشغل بشيء غير الحفظ وأن يذهب خيالك بعيدا عن النصوص فكل فكرك هو فيها وكثرة قراءتك لها فما تكرر تقرر..

ومن عجيب ما أورد الإمام البخاري أنه كتب عن ألف شيخ، عن كل واحد منهم عشرة آلاف حديث وليس العجب هنا، إنما العجب أنه يحفظ كل تلك الأسانيد لا يغيب عنه شيء منها.

([37]) سير أعلام النبلاء 160/10

(38)" مقدمة الفتح ": 488.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

قَالَ جعْفَر بْن محمد القطان إمام كرمينية فيما رَوَاهُ عَنْهُ مهيب بْن سُلَيْم أنّه سَمِعَ محمد بْن إِسْمَاعِيل يَقُولُ: كتبتُ عَنْ ألف شيخ أو أكثر، عَنْ كلّ واحدٍ منهم عشرة آلاف وأكثر، ما عندي حديث إلَا أذكر إسناده.[39]

ولعل القارئ إذا ضرب هذا العدد يستغرب فيقول وهل تبلغ أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم هذا العدد؟

والجواب أن الإمام البخاري يقصد الطرق لا المتون فقد يكون للحديث الواحد مائة طريق أو مائة إسناد فكان هذا يحسب عند المحدثين مائة حديث على اختلافات يسيرة أحيانا بين نص هذا الحديث لكنه في الأصل حديث واحد..

فهو يخبر هنا أن ذاكرته حافظة لكل ما كتب عن مشايخه، فكأنه يحفظ كل ما يكتب أو يقرأ أو يسمع كل ذلك من مرة واحدة..

وقد كان يتعب نفسه في التمحيص وتنقية الأحاديث وإخراج الصحيح من الضعيف قد أخذ على نفسه هذا وحمل هذا الجهد على عاتقه، قَالَ أحد طلابه: وَرَأَيْتُهُ اسْتلقَى عَلَى قَفَاهُ يَوْماً وَنَحْنُ بِفِرَبْر فِي تَصْنِيْفِهِ كِتَاب "التَّفْسِيْرِ" وَأَتْعَبَ نَفْسَهُ ذَلِكَ اليَوْمِ فِي كَثْرَةِ إِخْرَاجِ الحَدِيْثِ فَقُلْتُ لَهُ: إِنِّي أَرَاكَ تَقُوْلُ: إِنِّي مَا أَثْبَتُّ شَيْئاً بِغَيْرِ علمٍ قَطُّ مُنْذُ عَقَلْتُ فَمَا الفَائِدَةُ فِي الاسْتلقَاءِ؟ قَالَ: أَتعبْنَا أَنفُسَنَا اليَوْمَ، وَهَذَا ثغرٌ مِنَ الثُّغُوْرِ خَشِيْتُ أَنْ يَحْدُثَ حَدَثٌ مِنْ أَمرِ العدوِّ فَأَحْبَبْتُ أَنْ أَسْتريحَ وَآخُذَ أُهبَةً فَإِن غَافَصَنَا العَدُوُّ كَانَ بِنَا حَرَاكٌ.[40]

ومن شدة اجتهاده اعترته نحافة فقد كان الإمام البخاري نحيف الجسم وهكذا هم المجتهدون أرباب التحصيل، وحق أن ينشد فيه.

تراهُ من الذكاءِ نَحيفُ جسمٍ ... عليهِ من تَوقّدِهِ دليلُ

إذا كان الفتى ضَخمُ المَعالي.. فَليسَ يضيرهُ الجسدُ الضئيلُ

([39]) تاريخ الإسلام 140/6

([40]) سير أعلام النبلاء106/10

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

زهده وورعه وعبادته

وقد كان هذا الإمام في زهده وورعه أيضا آية فقد تحدث عنه كل من جالسه وصاحبه أنه كان صاحب عبادة وورع وزهد يقتفي أثر النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه الكرام فمن رآه قال إنما هذا نسخة من الصحابة، وفي عبادته كان مثالا يُحتذى به في شدة الإخبات لله تعالى والانصراف عما سواه، فقد قال محمد بن أبي حاتم: سار محمد بن إسماعيل البخاري إلى بستان بعض أصحابه فصلى بالقوم ثم قام للتطوع وأطال القيام، فلما فرغ من صلاته رفع ذيل قميصه، فقال لبعض من معه: انظر هل ترى تحت قميصي شيئًا، وإذا زنبورًا قد أبّره في ستة عشر أو سبعة عشر موضعًا، وقد تورم من ذلك جسده، وكان أثر الزنبور في جسده ظاهرًا، فقال له بعضهم: كيف لم تخرج من الصلاة في أول ما أبرك؟ قال: كنت في سورة فأحببت أن أتمها[41].

يا لله !!

ألا يذكرك هذا بصحابة النبي صلى الله عليه وسلم وقد كان بعضهم تتناوشه السهام وهم ماض في صلاته لا يلتفت إلى شيء ولا يشعر بشيء من شدة استغراقه في مناجاة ربه؟

([41]) تاريخ بغداد 12/2

www.alukah.net

أما حياته مع القرآن فقد كان شديد التعلق به تاليا له آناء الليل وأطراف النهار وله في رمضان برنامج آخر مع القرآن فقد نقل أنه إذا كان أول ليلة من شهر رمضان يجتمع إليه أصحابه فيصلى بهم ويقرأ في كل ركعة عشرين آية، وكذلك إلى أن يختم القرآن. وكان يقرأ في السحر ما بين النصف إلى الثلث من القرآن فيختم عند السحر في كل ثلاث ليال، وكان يختم بالنهار كل يوم ختمة وكون ختمة عند الإفطار كل ليلة، ويقول: عند كل ختم دعوة مستجابة .

ولربما أملق يوما أو افتقر وهو مكب في حفظ الحديث مقبل على التصنيف فقد قال حفص بن عمر الأشقر قال: كنا مع محمد بن إسماعيل البخاري بالبصرة نكتب الحديث ففقدناه يومًا فطلبناه، فوجدناه في بيت وهو عريان وقد نفد ما عنده و لم يبق معه شيء، فاجتمعنا وجمعنا له الدراهم حتى اشترينا ثوبًا وكسوناه، ثم اندفع معنا في كتابة الحديث.

يا للعجب !!

إمام الدنيا في حفظ الحديث وروايته وكاتب أعظم كتاب في تاريخ الأمة الإسلامية يصيبه العُري..؟

لا بأس إن كان في المقابل هذه العظمة والذكر والثناء الحسن والمجد والخلود.

ما ضره والله ما أصابه وقد ملأه ذكره الدنيا، وصنع أجمل الأثر، ورسم أبهى الخطوات، ووضع بصمة لا تمحوها الليالي والأيام.

ولجمال اقتفائه آثار النبي صلى الله عليه وسلم وسيره على هديه واستمساكه بسنته فقد رؤي النبي صلى الله عليه وسلم كثيرا بصحبته الإمام البخاري ومن ذلك ما قاله أبو أحمد بن عدي: سمعت محمد بن يوسف بن بشر الفربري يقول: سمعت النجم بن فضل وكان من أهل المعرفة والفضل يقول: رأيت النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ في المنام وقد خرج من باب ماشيًا في قرية ببخاري وخلفه محمد بن إسماعيل البخاري، فكلما خطا

www.alukah.net

النبي ــ صلى الله عليه وسلم ــ خطوة خطا محمد بن إسماعيل خطوة النبي ــ صلى الله علي وسلم ــ ووضع قدمه على موضع قدم النبي عليه العلم.[42]

وقال محمد بن البخاري: رأيت أبا عبد الله محمد بن إسماعيل يعني في المنام خلف النبي (صلى الله عليه وسلم) والنبي (صلى الله عليه وسلم) يمشي فكلما رفع النبي (صلى الله عليه وسلم) قدمه وضع أبو عبد الله محمد بن إسماعيل قدمه في ذلك الموضع[43].

وتفسيرهما واضح وهي اقتفاء هذا الإمام النبي صلى الله عليه وسلم ومشيه على خطاه واتباعه له حذو القذة بالقذة وعدم زيغه عن منهجه القويم ودربه السالك.

ومن حبه للنبي صلى الله عليه وسلم فقد قيل: إنه كان عنده شيء من شعرات النبي – صلى الله عليه وسلم – فجعله في ملبوسه[44].

وله كرامات حصلت أيام الطلب منها ما قاله ما حكاه عن نفسه قال: "خرجت إلى آدم بن أبي إياس، فتأخرت نفقتي حتى صرت آكل حشيش الأرض، فلما كان في اليوم الثالث أتاني رجل لا أعرفه، فأعطاني صرة فيها دنانير.."[45]

قلتُ: لا يستبعد أن هذا ملكا أرسله الله إليه كرما منه على عفته وصدقه في الطلب، أو قد يكون رجلا ثريا عرف حاجة الإمام البخاري من خلال رؤيا رآها، أو إلهام حصل له، أو تفرُّسٍ تفرّسه في هذا الإمام، وقد يكون هذا الرجل عبارة عن رسول مرسل من صديق للإمام البخاري عرف حاجة الإمام فأرسله غوثا له، وهذا من كرامة الله لأوليائه، وكم قد حصل لكثير من الصالحين أن يغيثهم في الملمات من لا يعرفهم وليس لهم به أدنى معرفة و لم يروه من قبل كرامة من الله لهم وبرا بهم ولطفا منه بحالهم.

([42]) المعلم بشيوخ البخاري ومسلم (ص: 25)

([43]) تاريخ دمشق 77/25

([44]) شرح البخاري للسفيري 51/1

([45])كوثَر المَعَاني الدَّرَارِي في كَشْفِ خَبَايا صَحِيحْ البُخَاري محمد الخضر الجكني 90/1

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

وقد عاش زاهدا متقشفا راضيا بالقليل رغم ما تركه له والده من أموال طائلة وقد ذكر الإمام الزاهد أبو الحسن يوسف بن أبي ذر البخاري قائلا: "مرض محمد بن إسماعيل البخاري فعرض ماؤه على الأطباء فقالوا لو أن هذا الماء ماء بعض أساقفه النصارى فإنهم لا يأتدمون فصدقهم محمد بن إسماعيل وقال لم أئتدم منذ أربعين سنة فسألوا عن علاجه فقالوا علاجه الإدام فامتنع عن ذلك حتى ألح عليه المشايخ ببخارى أهل العلم إلى أن أجابهم أن يأكل بقية عمره في كل يوم سكرة واحدة مع رغيف"(46).

وكان قد ورث من أبيه مالاً كثيرًا فكان يتصدق به. وكان قليل الأكل جدًا كثير الإحسان إلى الطلبة مفرطًا في الكرم.(47)

وذكر محمد بن العباس الفربري أن بعض أصحاب البخاري ضَيَّفه في بستانٍ له فلما جلسوا أعجب صاحب البستان بستانه؛ لأنه قد عمل مجالس فيه وأجرى الماء في أنهاره فقال: يا أبا عبد الله، كيف ترى؟ فقال: " هذه الحياةُ الدنيا "(48)

وكان شديد التعظيم لحرمات الله وتوقير شعائر الله لماحا منتبها لكل صغيرة وكبيرة ومن ذلك ما قاله علي بن محمد بن منصور قال سمعت أبي يقول كنا في مجلس أبي عبد الله محمد بن إسماعيل فرفع إنسان من لحيته قذاه فطرحها على الأرض، قال فرأيت محمد بن إسماعيل ينظر إليها وإلى الناس فلما غفل الناس رأيته مد يده فرفع القذاة من الأرض فادخلها في كمة فلما خرج من المسجد رأيته أخرجها فطرحها على الأرض(49).

وهو مع هذا التوقير لحرمات الله وورعه وزهده فقد كان يأخذ بالرخص غير ميال إلى التشديد في وجود النصوص التي تحث على الأخذ بالرخص فقد قال أبو حسان مهيب بن سليم: سمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول اعتللت بنيسابور علة خفيفة وذلك في شهر رمضان فعادني إسحاق بن راهويه في نفر من أصحابه فقال لي أفطرت يا أبا عبد الله فقلت نعم فقال خشيت أن تضعف عن قبول الرخصة فقلت أخبرنا

---

(46) تاريخ دمشق 80/52

(47) إرشاد الساري 37/1

(48)سير أعلام النبلاء 12/ 449

(49) تاريخ دمشق 80/52

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

عبدان عن ابن المبارك عن ابن جريج قال قلت لعطاء من أي المرض أفطر قال من أي مرض كان كما قال الله عز وجل " فمن كان منكم مريضا"(50).

فانظر – رعاك الله- إلى عبادته وأخلاقه وزهده وورعه وفقه تعامله مع الله وحسن اقتدائه بالنبي صلى الله عليه وسلم وسيره على خطاه، وارتسامه دربه القويم..

أخلاقه وتعامله وكرمه

كان الإمام البخاري غاية في حسن الخلق، وكان كريمًا معطاءً باذلًا صادقًا محسنًا، ولقد كان عفيف اللسان فقد روي عنه أنه قال: إني لأرجو أن ألقى الله تعالى ولا يحاسبني أن اغتبت أحدًا.(51)

وقال الحسين بن محمد السمرقندي: "كان محمد بن إسماعيل مخصوصًا بثلاث خصال، مع ما كان فيه من الخصال المحمودة: كان قليل الكلام، وكان لا يطمع فيما عند الناس، وكان لا يشتغل بأمور الناس، كلُّ شُغلِهِ كان في العلم "(52)

وكان حسن النية صادقا في حديثه لا يكذب ولا يخلف الوعد و لم يعثر عليه سوءًا في خلقه أو طيشًا في تعامله، بل كانت أخلاقه أخلاق انبى صلى الله عليه وسلم فقد قَالَ أبو سعيد بكر بن منير: كان حمل إلى محمد بن إسماعيل بضاعة أنفذها إليه فلان، فاجتمع بعض التجار إليه بالعشية فطلبوها منه بربح خمسة آلاف درهم فقال لهم انصرفوا الليلة، فجاءه من الغد تجار آخرون فطلبوا منه تلك البضاعة بربح عشرة آلاف درهم فردهم وقال إني نويت البارحة أن أدفع إلى الذين طلبوا أمس بما طلبوا أول مرة فدفعها إليهم بما طلبوا – يعني الذين طلبوا أول مرة – ودفع إليهم بربح خمسة آلاف درهم، وَقَالَ: لا أحب أن أنقض نيتي.(53)

---

(50) تاريخ دمشق 86/52

(51) تاريخ بغداد 2 / 13 وتهذيب الكمال 16 / 94 وسير أعلام النبلاء 12 / 439

(52) سير أعلام النبلاء، للذهبي، 12/ 449.

(53) تاريخ بغداد 11/2

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

وجاءته جاريته فعثرت على محبرة بين يديه فقال لها كيف تمشين؟ فقالت إذا لم تكن طريق فكيف أمشي. فقال اذهبي فأنت حرة لوجه الله، فقيل له يا أبا عبد الله أغضبتك وأعتقتها قال أرضيت نفسي بما فعلت[54].

وكان كريما منفقا لا يفارقه كيسه، كثير الصدقات، منفقا ماله على نفسه في طلب العلم ومتصدقا باذلا على طلابه المحاويج وعلى الفقراء ولهذا قال محمد بن أبي حاتم: سمعته يقول: " كنت استغلُّ كُلَّ شهر خمسمائة درهم، فأنفقت كلَّ ذلك في طلب العلم " فقلت: كم بين من ينفق على هذا الوجه، وبين من كان خِلوا من المال، فجمع وكسب بالعلم، حتى اجتمع له. فقال أبو عبد الله {وَمَا عِنْدَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَى} [الشورى: 36] وكان كثير الإِحسان إلى الطلبة، مفرط الكرم وكان يتصدق بالكثير، يأخذ بيده صاحب الحاجة من أهل الحديث فيناوله المال الكثير من غير أن يشعر بذلك أحد قال الإمام ابن كثير رحمه الله: " وكان له جدة، ومال جيد ينفق منه سرا وجهرا، وكان يكثر الصدقة بالليل والنهار. . . " [55].

وقد ورث الإمام البخاري ثروةً كبيرة من أبيه، فكان يُعطي المال مضاربةً ليتفرغ لخدمة السُّنَّة النبوية، فكان في معاملاته سمحًا رحيمًا، وذات مرة قطع له أحد الغرماء خمسةً وعشرين ألفًا، فحاول أصحابه أنْ يُلاحق غريمه ويستنجد على ذلك بالسلطان، ولكنه أبى وقال: "إن أخذتُ منهم كتابًا طمعوا، ولن أبيع ديني بدنياي ".

وكان البخاري يهدف من تجارته أن ينفع خلقِ الله، فكان يُساعد طلبة العلم والشيوخ والمحدثين، وكان يُنفِقُ من دخله خمسمائة درهم على الفقراءِ والمساكين وطلبةِ العِلم وأصحاب الحديث كل شهر، ولم يكُن يعرف الترف والبذخ في حياته في المأكل والمشرب.

وكان رحمه الله يعود نفسه على الإيثار والبعد عن حب المال، وكان ورعا تقيا، وكان شديد التمسك بالسُّنَّة، بعيدًا عن مخالطة الأمراء ومجالستهم، وبنى رِباطا خارج مدينة بخارى، فكان يشارك العمال في بناءه، فينقل اللبن يحمله على رأسه ويرفعه ويقدمه للبنائين، فقيل له: يا أبا عبد الله إنَّك تُكفى ذلك! فيقول: "هذا الذي ينفعني". [56]

([54]) إرشاد الساري 37/1

([55])البداية والنهاية 11/ 26.

([56]) التوضيح شرح الجامع الصحيح 61/1

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

مذهب البخاري الفقهي

تحلق العلماء وبحث الفقهاء في شخصية البخاري الفقهية فاجتهدوا غاية الاجتهاد في تصنيفه فقوم صنفوه مجتهدا وآخرون صنفوه متبعا لمذاهبهم ولهم في ذلك ثلاثة أقوال:

فقيل هو من الحنابلة، حيث ذكره ابن أبي يعلى في كتابه طبقات الحنابلة، وقال ابن القيّم: «البخاري ومسلم وأبو داود والأثرم وهذه الطبقة من أصحاب أحمد أتبع له من المقلدين المحض المنتسبين إليه.[57]

فكما ترى أن هنا من كبار علماء الحنابلة كأبي يعلى والقيم يريان أنه كان حنبليًّا مقلدًا للإمام أحمد.

والقسم الثاني من العلماء من يرى أنه كان شافعيا فذكره تاج الدين السبكي في كتاب طبقات الشافعية الكبرى، وعدّه صديق حسن خان من أئمة الشافعية في كتاب أبجد العلوم. وقال ابن حجر العسقلاني: «إن البخاري في جميع ما يورده من تفسير الغريب إنما ينقله عن أهل ذلك الفن كأبي عبيدة والنضر بن شميل والفراء وغيرهم وأما المباحث الفقهية فغالبها مستمدة من الشافعي وأبي عبيد وأمثالهما[58].

فهو هنا من الشافعية بل من أئمتهم كما ترى ولهم حججهم واعتباراتهم .

وقسم ثالث من العلماء يرون أنه بلغ غاية الاجتهاد فهو مجتهد مستقلّ، و لم يكن مقلّداً لأي من مذاهب الأئمة الأربعة المشهورة، وهو ما رجّحه عدد كبير من العلماء من المتقدّمين والمعاصرين وهو ما يراه الكاتب صوابا.

قال ابن تيمية: «أما البخاري؛ وأبو داود فإمامان في الفقه من أهل الاجتهاد»[59].

وقال الذهبي: «كان إماماً حافظاً حجة رأساً في الفقه والحديث مجتهداً من أفراد العالم»[60].

---

[57] إعلام الموقعين عن رب العالمين – ابن القيّم، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين (طبعة دار الكتب العلمية:ج2 ص170)

[58] انظر: أبجد العلوم – صديق حسن خان، أبو الطيب محمد صديق خان بن حسن بن علي ابن لطف الله الحسيني البخاري القِنّوجي (طبعة دار ابن حزم:ج1 ص640) فتح الباري شرح صحيح البخاري – ابن حجر العسقلاني، أبو الفضل أحمد بن علي بن حجر العسقلاني الشافعي (طبعة دار المعرفة:ج1 ص243) والإسلام سؤال وجواب: ماذا كان مذهب الإمام البخاري نسخة محفوظة 10 مارس 2016 على موقع واي باك مشين.

[59] مجموع الفتاوى – ابن تيمية، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (طبعة مجمع الملك فهد:ج20 ص40)

www.alukah.net

إن الصحيح في التوجه الفقهي لدى الإمام البخاري أنه كان لا يميل إلى أي مذهب فقهي بل كان مجتهدا عبقريا بلغ غاية العمق والاستنباط فهو فقيه مدرك لمسائل الفقه مستوعب لها جامع لأشتاتها ويكفيك أن مِن ثمار جهده، "الجامع الصحيح" الذي حوَى من الدُّرر الفقهية ما لا يخطر على بال، فقد اشتمل على كثيرٍ مِن الفوائد الفقهيَّة المستنبَطة من أحاديث رسول الله – صلَّى الله عليه وسلَّم – والتي أودَعها في تراجم الأبواب، والتي تُبْرِزُ مدى علمه الجم ومدى تبحره في عِلم الفقه، ليس هذا فحسْب، بلْ إنها تُبَرهِن برهانا واضحت لا لبس فيه على مدى استقلاليَّته الفقهيَّة واجتهاده، شأنه شأن غيره من العلماء المجتهدين الذين برزوا عبر الأزمنة.

إن الإمام البخاري درس المذاهب وأحاط بها فقد قرأ في صغره كتب ابن المبارك وأتقنها واستوعب ما فيها ثم أصبح من خواص تلامذة أبي حنيفة، وتبحر في مذهب الأحناف، وطالع كتب الأحناف وهو حدث صغير – كما أخبر عن نفسه –، ثم انتقل إلى رحاب المذهب الشافعي من طريق الكرابيسي، ثم هو تلميذ نجيب لأحمد بن حنبل فقد التقى به وجالسه وسمع منه وتأثر بسمته وأخلاقه وزهده واستفاد كثيرا من علمه، كما أخذ عن أصحاب مالك فقهه واجتهاداته، فجمع طرق الاجتهاد وأحاط بالمذاهب دراسة واطلاعا، فتهيأ له بذلك مع ذكائه المفرط وسيلان ذهنه أن يسلك طريق المجتهدين النوابغ، وكتابه شاهد صدق على ذلك، حيث يستنبط فيه الحكم من الأدلة، ويتبع الدليل دون التزام مذهب من المذاهب، وله استنباطات عجيبة ودقيقة بما يدل على أنه مجتهد بلغ رتبة المجتهدين، وليس مقلداً لمذهب ما كما يدعي بعض أتباع المذاهب.

ففي ابتداء أبواب كتابه – رحمه الله – غالبًا ما يُترجِم أولاً بما يدلُّ على مشروعية الحُكم المذكور؛ سواءٌ بالنَّص على حُكمه كما فعل في أول كتاب الجمعة، حيث ابتدأ بالتنصيص على فرضية الجُمعة، أو بقوله: باب ما جاء في كذا، ثم يسُوق في الأدلَّة ما يستدل به على مشروعية ذلك الحُكم.

ثم إن ترتيب البخاري لأبواب الجامع يكمُن فيه نكتٌ فقهية تَظهر للمتأمل؛ فقدْ تَبين سابقًا أنَّ ذِكره – رحمه الله – لصلاة الخوف إثر صلاة الجمعة؛ لأنهما من جملة الخَمس، لكنْ خرَج كل منهما عنْ قياس حُكم باقي الصلوات، ولَمَّا كان خروج الجمعة أخفَّ قدَّمه تلْو الخَمس، وعَقبه بصلاة الخوف لكثرة المخالفة.

---

60 الكاشف في معرفة من له رواية في الكتب الستة – شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (طبعة دار القبلة للثقافة الإسلامية: ج2 ص156)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

كذلك التسلسل الموضوعي لأبواب الجامع؛ فنجدُه مثلاً حين يعقِد الأبواب المتعلِّقة بالجمعة يبتدئ بذِكر فرضيَّتها، ثم الهيئة لها، ثم مَن تجِب عليه، فآداب المشي إليها، ثم يُعقب بأحكام الأذان فالخُطبة فالصلاة... وهكذا.[61]

إن الإمام البُخاري – رحمه الله – كان إماما مجتهدا له مذهَبه الفقهي، شأنه شأن غيره من الأئمَّة المجتهدين الكبار فمن حيث مصادر الأحكام الشرعية تجده يعتمد على أصول فِقه الصحابة والتابعين؛ فنجده يستند في استنباطاته الفقهية على آيات القرآن، ومن ثم يعتمد على السُّنَّة الصحيحة؛ مما يولِّد اطمئنانًا إليه وإلى منهجه؛ نظرًا لقوة الأدلة التي يَعتمد عليها وهو أيضا يعتمد على بالقياس دون توسع فتجده يذهَب إلى مشروعيَّة الإبراد بالجمعة قياسًا على الظُّهر، وهو يحتج بمذهَب الصحابي، فنجدُه مثلاً يُترجِم بقوله: (باب وقت الجمعة إذا زالت الشمس، وكذلك يروى عن عُمر، وعلي، والنُّعمان بن بَشير...).[62]

فهو فقيه متمكن فأنت ترى في تراجمه ما يوحي إليك بأبواب العبادات والمعاملات التي تشتمل على الأحكام الشرعية؛ إما تصريحًا أو تلميحًا؛ فهو يستعمل الواجب، والمندوب، والمستحب، والحرام، والمكروه، والمباح، والأفضل، والجائز، وهو أصولي بارع لا يشق له غبار حيث يأتي بما يدل على الأحكام الوضعية؛ كالشرط، والسبب، والمانع، والرخصة، والعزيمة.. وغيرها من الألفاظ الدالة على الحكم الشرعي كما تلمح موافقته للجمهور في عدم التفريق بين الواجب والفرض[63].

---

[61] انظر: فقه الإمام البخاري في كتاب: الجمعة، الخوف، العيدين، الوتر من جامعه الصحيح، زهور محمد عبده محمد، رسالة ماجستير، من جامعة أم القرى، 1423ه.

[62] انظر المرجع السابق.

[63] هناك كتاب ألف عن شخصية الإمام البخاري الأصولية لأنصح بالعودة إليه وهو "معالم أصول الفقه عند الإمام البخاري من خلال جامعه الصحيح"، تأليف: د. "محمود محمد الكبش"، عضو هيئة التدريس بكلية الشريعة – جامعة أم القرى، نشر "دار طيبة الخضراء للنشر والتوزيع". وهو دراسة استقصائية لفقه الإمام البخاري الأصولي في كتابه "الجامع الصحيح" تناولت الحديث عن القواعد الأصولية التي قرَّرها الإمام البخاري أو طبَّقها على الأحكام الشرعية في عناوين الأبواب في هذا الكتاب؛ والتي يسميها العلماء بـــ (التراجم)، وقد قيل: «فقه الإمام البخاري يعرف من تراجمه»، أو من خلال اختياراته الحديثية ومن هنا ظهرت فكرة هذه الدراسة.
حيث ذكرَ الكاتب الآراء الأصولية التي صرح بها الإمام البخاري في تراجم الأبواب، والدالة على اختيارات أصولية وقارنها برأي جماهير العلماء، وذكرَ استدلالات البخاري التي استدل بها مطلقًا، كما استوعب بحث المسائل التي خالف فيها الجمهور.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

إجماع العلماء على إمامته

أجمع علماء زمانه ومن بعدهم إلى يومنا هذا بإمامة البخاري وألمعيته وتقدمه على أهل فنه قال فهذا مسلم بن الحجاج – صاحب الصحيح- جاء إليه ذات مرة فقبل بين عينيه فقال دعني حتى أقبل رجليك يا أستاذ الأستاذين وسيد المحدثين وطبيب الحديث في علله[64].

وقال له الإمام مسلم أيضا: «أشهد أنه ليس في الدنيا مثلك»[65]

وقال الإمام أحمد بن حنبل : ما أخرجت خراسان مثل محمد بن إسماعيل البخاري[66].

وقال ابن خزيمة: «ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث منه وأحفظ»[67]

وقال محمد بن يوسف الفربري: حدثنا محمد بن أبي حاتم قال سمعت محمد بن إسماعيل البخاري يقول: "لما دخلت البصرة صرت إلى مجلس محمد بن بشار فلما خرج وقع بصرة علي فقال من أين الفتى قلت من أهل بخارى قال كيف تركت أبا عبد الله فأمسكت فقال له أصحابه رحمك الله هو أبو عبد الله فقام فأخذ بيدي وعانقني وقال مرحبا بمن أفتخر به منذ سنين" [68].

أما بالنسبة للآراء الأصولية التي تُفهَم من كلام الإمام البخاري فقد ذكر رأيه في المسألة الفقهية، ثم ذكر الدليل الذي اعتمد عليه، ومن ثم استنبط القاعدة الأصولية التي استخرج بواسطتها هذا الحكم من هذا الدليل.

وترجع أهمية هذه الدراسة إلى كونها دراسة استقرائية تطبيقية على "صحيح البخاري" وبالتالي سيجد القارئ عشرات الأمثلة على كثير من المسائل الأصولية، كما أنها تعلقت بدراسةِ عقليَّةِ الإمام البخاري الفذة، وقدرته على توظيف الأدلة الشريعة؛ للوقوف على منهج الاستنباط عنده، ومعرفة آرائه الأصولية.كما أنها دراسة مستقلة متكاملة أتت على أبواب أصول الفقه كلها.

(64) تاريخ دمشق 68/52

(65) حدث بذلك أبو عيسى الترمذي صاحب السنن المشهورة، ونقله عنه الحافظ ابن حجر. انظر: تغليق التعليق (411/5)، ومقدمة فتح الباري (ص 485) .

(66) تهذيب الكمال 16 / 100 وسير أعلام النبلاء 12 / 421

(67) سير أعلام 99/10

(2) انظر: التقييد (ص 32)، وتذكرة الحفاظ (556/2)، وابن حجر في تغليق التعليق (411/5)، وفي مقدمة فتح الباري (ص 485) .

(68) تاريخ بغداد 2 / 22 وتهذيب الكمال 26 / 100

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

كان البخاري آية من آيات الله تمشي على ظهر الأرض وهو إمام أهل الحديث بلا خلاف بين أهل النقل وقد كان رأسا في الذكاء، رأسا في العلم، رأسا في الورع والعبادة، وهو جبل في الحفظ وإمام الدنيا في الحديث، قال موسى بن هارون :

لو أن أهل الإسلام اجتمعوا على أن ينصبوا مثل محمد بن إسماعيل آخر ما قدروا عليه[69].

وهذا عبد الله بن سعيد بن جعفر يقول: سمعت العلماء بالبصرة يقولون ما في الدنيا مثل محمد بن إسماعيل في المعرفة والصلاح[70].

قال أحمد بن أبي بكر المديني محمد بن إسماعيل أفقه ممن عندنا وأبصر، فقال رجل من جلسائه جاوزت الحد فقال أبو مصعب لو أدركت مالكا ونظرت إلى وجهة ووجه محمد بن إسماعيل لقلت كلاهما واحد في الفقه والحديث[71].

قال حاشد بن إسماعيل: رأيت إسحاق بن راهويه جالسًا على السرير ومحمد بن إسماعيل معه وإسحاق يقول حدثنا عبد الرزاق حتى مر على حديث فأنكر عليه محمد بن إسماعيل فرجع إلى قول محمد فقال إسحاق بن راهويه: يا معشر أصحاب الحديث أنظروا إلى هذا الشاب واكتبوا عنه فإنه لو كان في زمان الحسن بن أبي الحسن لاحتاج إليه الناس لمعرفته بالحديث وفهمه[72].

وَقَالَ مُحَمَّدُ بنُ يُوْسُفَ الهَمَذَانِيُّ: كُنَّا عِنْدَ قُتَيْبَةَ بنِ سَعِيْدٍ فَجَاءَ رَجُلٌ شَعْرَانِيٌّ يُقَالُ لَهُ: أَبُو يَعْقُوْبَ فَسَأَلَهُ عَنْ مُحَمَّدِ بنِ إِسْمَاعِيْلَ فنكسَ رَأْسَهُ ثُمَّ رفعَهُ إِلَى السَّمَاءِ فَقَالَ: يَا هَؤُلاَءِ نظرْتُ فِي الحَدِيْثِ، وَنظرتُ فِي الرَّأْيِ وَجَالَسْتُ الفُقَهَاءَ وَالزُّهَادَ، وَالعُبَّادَ مَا رَأَيْتُ مُنْذُ عقلْتُ مِثْلَ مُحَمَّدِ بنِ إِسمَاعيلَ.

وَقَالَ حَاشِدُ بنُ إِسْمَاعِيْلَ: سَمِعْتُ قُتَيْبَةَ يَقُوْلُ: مَثَلُ مُحَمَّدُ بنُ إِسْمَاعِيْلَ عِنْدَ الصَّحَابَةِ فِي صدقِهِ، وَوَرَعِهِ كَمَا كَانَ عُمَرُ فِي الصَّحَابَةِ.

([69]) تهذيب الكمال 16 / 100 وسير أعلام النبلاء 12 / 434

([70]) سير أعلام النبلاء 12 / 442

([71])سير أعلام النبلاء 12 / 421

([72]) تاريخ دمشق 86/52

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

وَقَالَ حَاشِدُ بنُ إِسْمَاعِيْلَ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ بنَ حَنْبَلٍ يَقُوْلُ: لَمْ يجئنا مِنْ خُرَاسَانَ مِثْلُ مُحَمَّدِ بنِ إِسْمَاعِيْلَ.

وقال أبو حَاتِمٍ الرَّازِيِّ : مُحَمَّدُ بنُ إِسْمَاعِيْلَ أَعْلَمُ مَنْ دَخَلَ العِرَاقَ.[73]

هذا غيض من فيض مما قيل فيه ولا زال الأئمة من زمنه إلى زماننا هذا يترضون عنه ويترحمون عليه ويعدونه أمير المؤمنين في الحديث، وقد جمع مناقبه الحافظان الكبيران الذهبي وابن حجر العسقلاني في مؤلفين خاصين.

وأختم بما قاله الحاكم عنه حيث يقول: «ولو فتحنا باب الثناء عليه ممن تأخر عن عصره لفني القرطاس، ونفذت الأنفاس، فذاك بحر لا ساحل له[74]»

كتابه الجامع الصحيح

ألف الإمام البخاري صحيحه الذي سماه: "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله - صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وسننه وأيامه"، وهو أول مُصَنَّف صُنِّف في الصحيح المجرد. واتفق العلماء على أن أصح الكتب المصنفة صحيحا البخارى ومسلم. واتفق الجمهور على أن صحيح البخاري أصحهما صحيحًا، وأكثرهما فوائد(75).

وقد اعتنى به ودققه واشتغل عليه ستة عشر سنة وانتخبه من ستمائة ألف حديث، قال محمد بن أبي حاتم سئل محمد بن إسماعيل عن خبر حديث فقال: يا أبا فلان تراني أدلس تركت أنا عشرة آلاف حديث لرجل لي فيه نظر وتركت مثله أو أكثر منه لغيره لي فيه نظر(76).

وقد ذكر صاحب كشف الظنون أن عدد مشايخ البخاري الذين خرج عنهم في الجامع الصحيح مائتان وتسعة وثمانون[77].

([73]) سير أعلام النبلاء99/10

([74]) نقله عن الحاكم الحافظ ابن حجر في المقدمة (ص 485)

([75]) انظر تهذيب الأسماء واللغات للنووي 73/1

([76])تاريخ بغداد 77/52

([77])الإمام البخاري وكتابه الجامع الصحيح (ص: 33)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

وقد بلغ من حرص البخاري ودقته وضبطه وتحريه وعنايته بتصنيف "الجامع الصحيح"، أنه أعاد النظر فيه مرات، لكثرة ما تعهده بالتهذيب والترتيب والتنقيح، قبل أن يخرجه للناس ويمليه على طلابه، ولذلك صنفه ثلاث مرات.

وهذا يؤكد حرص البخاري الشديد وتثبته في إخراج الجامع الذي هو أول كتاب في الصحيح، حتى يكون نموذجًا فريدا جميلا خالدًا لكتب الحديث، ومثالًا يحتذي به المحدثون والمصنفون من بعده، حتى نال شرف ولقب أمير المؤمنين في الحديث، و لم يكد يتم تصنيفه وتأليفه حتى عرضه على شيوخه وأساتذته ليعرف رأيهم فيه فأعجبوا به وباركوا له هذا الصنيع الذي لم يسبقه إلى منواله أحد.

والأحاديث الصحيحة التي هي موضوع الكتاب، ويشتمل أيضاً على ما في تراجم أبوابه من الاستنباطات الفقهية واللطائف التفسيرية وذكر أقوال السلف ومن التعليقات والموقوفات والفوائد الفقهية والنكت الحكمية فاستخرج بفهمه من المتون معاني كثيرة فرقها في أبواب الكتاب ونثرها بحسب تناسبها، واعتنى فيه بآيات الأحكام فانتزع منها الدلالات البديعة، وأوضح فيها المعاني البليغة وبذلك جمع رحمه الله في كتابه الجامع الصحيح بين الرواية والدراية، بين حفظ سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وفهمها..

شرط البخاري في صحيحه: شرط البخاري في جامعه أن يكون الراوي قد عاصر شيخه، وثبت عنده سماعه منه، وشرط البخاري أيضا " أن يخرج الحديث المتفق على ثقة نقلته إلى الصحابي المشهور من غير اختلاف بين الثقات الأثبات، ويكون إسناده متصلا غير مقطوع "[78].

ومن فضائل كتابه "الجامع الصحيح" ما رواه الفِرَبْري، قال: سمعت البُخاري يقول: ما وضعت في كتاب الصحيح حديثًا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين، وفي رواية البُجَيْري: صنفت كتابي الجامع في المسجد الحرام، وما أدخلت فيه حديثًا حتى استخرت الله تعالى، وصليت ركعتين، وتيقنت صحته، ومعنى كونه صنفه

([78])اختصار علوم الحديث لابن كثير، المطبوع مع شرحه: الباعث الحثيث، لأحمد محمد شاكر، 1/ 103، هدي الساري مقدمة صحيح البخاري، لابن حجر ص 9.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

في المسجد الحرام: أنه ابتدأ تصنيفه وترتيبه وأبوابه في المسجد الحرام، ثم كان بعد ذلك يخرج الأحاديث في بلده وغيره..[79]

ولا شك أن صحيح البخاري أصح كتب الحديث على الإطلاق، وهو الكتاب الذي خلّد اسم البخاري، ودخل به التاريخ من أوسع أَبوابه، وأصبح لا يذكر البخاري إلا مقرونا بكتابه، وقد كان المحدثون قبله يجمعون الصحيح مع الضعيف ويتركون للقارئ البحث عن إسناد هذا الحديث فقام البخاري باختيار الصحيح مجردا له عما سواه ليريح القارئ عن البحث بعد ذلك وإن كل علم يتطور حتى يصل إلى مرتبة الكمال والإتقان فإن صحيح البخاري ومن أول وهلة كان هو المبتدأ والغاية فلم يسبق و لم يلحق فأبدع أيما إبداع في كتابه هذا وقد جود وحبره وأتقن صنعته فصار آية للسائلين..

وقد ألزم البخاري نفسه ألا يُورد إلا حديثًا صحيحًا، وشرط الصحيح عنده أن يكون إسناده متصلاً، وأن يكون راويه مسلمًا صدوقًا عدلا غير مدلس ولا مختلط، متصفًا بصفات العدالة، ضابطًا متقنا، سليم الذهن، قليل الوهم، سليم الاعتقاد، كما اشترط الإمام البخاري الدقة المتناهية في قبول الرواية، إذ اشترط في الراوي شرطين: معاصرته لمن يروي عنه، وسماعه لما يروي.

وبهذه الشروط والالتزامات قبلت الأمة كتابه، وكتب الله به النفع، وحصل به الخير الكثير، وأقبل طلبة العلم عليه ينهلون من معينه، ويرتشفون من زلاله، واشتغل به العلماء، وبه عرف الإمام البخاري بين الناس، وطار صيته.

وقد أَجمع علماء الإِسلام على تلقي هذا الكتاب الصحيح بالقبول، لأنه الكتاب المبارك الذي جمع بين دُفتَيْهِ السنّة الصحيحة، ولا شك أن صاحبه رحمه الله تعالى عندما أسماه " الجامع المسند الصحيح" قد عنى بالفعل أن يكون هذا الكتاب مطابقًا لعنوانه، فنفَّذ ما وصفه به بكل دقة وضبط وعناية، والتزام، ولهذا حَظِيَ الكتاب بما لم يحظَ به غيره، من تقدير علماء الإسلام وإعجابهم به شرقًا وغربًا شمالا وجنوبا، فأثنوا عليه بالغ الثناء، ووصفوه بما يليق به من أوصاف، فقال الذهبي في تاريخ الإِسلام:

([79]) كوثر المعاني الدراري للحكيني 102/1

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

"أما جامع البخاري الصحيح فأجل كتب الإسلام، وأفضلها بعد كتاب الله وهو أعلى في وقتنا هذا إسنادًا للناس".[80]

هذا كلام الحافظ الذهبي ثم يقول في كلام نفيس يقطر عسلًا، ويتلألأ نورًا واصفًا هذا الكتاب العظيم: وهو أعلى شيء فِي وقتنا إسنادًا للنّاس، ومن ثلَاثين سنة يفرحون بعُلُوِّ سماعه، فكيف اليوم؟ فلو رحل الشخص لسماعه من مسيرة ألف فَرْسخ لَمَا ضاعت رحلتهُ. وأنا أدري أنّ طائفة مِنَ الكبار يستقلّون عقلي فِي هذا القول، ولكن:

ما يعرف الشَّوقّ إلَا من يُكابدهُ ... ولا الصَّبَابَة إلَا مَن يُعَانيها[81]

ولقد كان من العوامل التي ساعدت البخاري على أن يكون الرائد الأَوَّلَ في تجريد الأحاديث الصحيحة: أنه رزق خمس خصال أوصلته إلى مبتغاه:

الأولى: ذاكرته القوية الفولاذية التي استطاع من خلالها أن يحفظ تلك الأعداد الهائلة من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم بسندها، فروي عنه أنه كان يحفظ في صباه سبعين ألف حديث وأكثر، ولا يجيء بحديث عن الصحابة والتابعين إلا ويعرف مولد أكثرهم ووفاتهم ومساكنهم وأوصافهم، ومهما كانت هذه الأخبار التي رويت عنه فإنها تدلنا على قدرته الفائقة في الحفظ، وكان من شدة حفظه لا يقيد أحيانًا، وكان من شدة حفظه لربما أعاد تذكر مائتي ألف حديث وهو مستلق على فراشه من العشاء إلى الفجر فكانه يستعرض فهارسها وأبوابها فتبدو له تباعا كالماسح الضوئي وهذا مقام في الحفظ لا يبلغه أحد وما بلغه أحد قبله ولا بعده إلا أن يشاء الله.

الثانية: المهارة الفائِقة في معرفة الرجال وحفظ تاريخهم ونقدهم، ومعرفة مشايخهم وتلاميذهم ومعتقداتهم وسير حياتهم وما تعلق بهم وقد وضع في ذلك كتابه "التاريخ" لتمييز الرجال، ورووا عنه أنه قال: قَلَّ اسْمٌ في التاريخ إلا وله عندي قصة.

([80]) تاريخ الإسلام 140/6

([81]) المصدر السابق نفس الصفحة.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

الثالثة: رحلاته المبكرة في علم الحديث إلى مختلف البلدان ومجالسته أكابر علماء زمانه واستفادته منهم وسماعهم وتقييده أحاديثهم ومقارنة أحاديث كل عالم بالعلماء الآخرين فأفادته الرحلة مهارة فائقة في التميز.

الرابعة: صلاح أبويه وعفتهما، فنشأ محبًّا شغوفًا؛ لأن يقتدي بأبيه الذي كان عالِمًا محدثًا ورعًا تقيًّا صالحًا من عداد العلماء الصالحين، فنشأ على سيرة أبيه وفاقه، وصلاح أمه وتقاها - من جانب آخر - إذ دفعت به وشجعته حبا لعلم الحديث، فصلاح الأبوين مهم جدًّا في هذه التنشئة وبلوغ سمو هذه الدرجة، كيف لا وأمه كانت صاحب ولاية وقد رد الله بصر ولدها بكثرة دعائها، ووالده عند موته يقول: "لا أعلم من مالي درهما من حرام ولا درهم من شبهة" فكان بناء جسد ولده من المال الحلال الخالص فكيف لا يكون إمامًا؟

الرابعة: وهي الأهم إخلاصه وصفاء نيته وحبه لعلم الحديث ورغبته الجامحة في إفادة الأمة، وتقديم الحديث الصحيح لها على طبق من ذهب ابتغاء الأجر والمثوبة، وما أوصله الله إلى ما أوصله من درجة عالية سامية رفيعة إلا لشيء وقر في قلبه من خلوص نية، وصدق توجه، وحسن افتقار، وكمال تذلل لله تعالى.

حيازته لقب أمير المؤمنين في الحديث

ترقى الإمام البخاري حتى أصبح يلقب بأمير المؤمنين في الحديث لمهارته الفائقة وقدرته البالغة على الاستذكار والحفظ وحق له هذا اللقب الذي يعد كالشامة له ومن سيبلغ ما بلغه الإمام البخاري حفظًا واستيعابًا.

وكان إلى جانب استحقاقه هذا اللقب فقيها يعمل بالدليل، فكل محدث فقهيه لا العكس ويظهر فقهه في عناوينه البارزة التي يستفتح بها أحاديث كتابه.

و لم يلقب نفسه بهذا اللقب وإنما أطلقه عليه الفن والاختصاص لما خبروه منه وما اطلعوا عليه من أحواله وبقي أن نعرف ما المقصود بهذا اللقب؟

"أمير المؤمنين في الحديث: هو من تبحر في علمي الحديث رواية ودراية، وأحاط علمه بجميع الأحاديث ورواتها جرحًا وتعديلًا، وبلغ في حفظ كل ذلك الغاية، ووصل في فهمه النهاية، وجرب في كل ذلك فلم يأخذ عليه آخذ، وإنما حاز قصب السبق في كل ذلك، وفاق حفظًا وإتقانًا وتعمقًا في علم الحديث وعلله كل من سبقه حتى صار مرجعًا لمن يأتي بعده، فهو من أرفع ألقاب المحدثين وأعلاه. قال الشيخ أحمد محمد شاكر: «أطلق

www.alukah.net

المحدثون ألقابًا على العلماء بالحديث: فأعلاها: أمير المؤمنين في الحديث، وهذا لقب لم يظفر به إلا الأفذاذ النوادر، الذي هم أئمة هذا الشأن والمرجع إليهم فيه، كشعبة بن الحجاج وسفيان الثوري وإسحاق بن راهويه وأحمد بن حنبل والبخاري والدارقطني، وفي المتأخرين ابن حجر العسقلاني رضي الله عنهم جميعًا."[82]

[82] ألفيّة السيوطي في علم الحديث بتعليق الشيخ أحمد شاكر (طبعة المكتبة العلمية: ج1 ص92)

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

أسباب تأليفه لصحيحه

لم تكن آثار النبي صلى الله عليه وسلم وأخباره مدونة في عصر الصحابة وكبار التابعين، وذلك لأمرين":

أ- أنهم كانوا في ابتداء الأمر قد نهوا عن الكتابة خشية أن يختلط بعض الأخبار بالقرآن الكريم.

ب- سعة حفظهم وقوته؛ ولأن أكثرهم كانوا لا يعرفون الكتابة، ثم حدث في أواخر عصر التابعين تدوين الآثار، وتبويب الأخبار لما انتشر العلماء في الأمصار، وكثر الابتداع من الخوارج والروافض ومنكري الأقدار، وغيرهم، فألف عدد من علماء الإسلام مصنفات في أحاديث النبي الكريم صلى الله عليه وسلم، وكانت تشمل الأحاديث الصحيحة والحسنة، والضعيفة، فحرك ذلك همة البخاري لجمع الحديث الصحيح"[83].

وقد ذكر الحافظ ابن حجر في مقدمة كتابه فتح الباري أسبابا ثلاثة دعت الإمام البخاري -رحمه الله- إلى تأليف كتابه الجامع الصحيح:

أحدها: أنه وجد الكتب التي ألفت قبله بحسب الوضع جامعة بين ما يدخل تحت التصحيح والتحسين والكثير منها يشمله التضعيف فلا يقال لغثه سمين، قال فحرك همته لجمع الحديث الصحيح الذي لا يرتاب في صحته أمين.

الثاني: قال وقوّى عزمه على ذلك ما سمعه من أستاذه أمير المؤمنين في الحديث والفقه إسحاق بن إبراهيم الحنظلي المعروف بابن راهويه وساق بسنده إليه أنه قال: "كنا عند إسحاق بن راهويه فقال: "لو جمعتم كتابًا مختصرا لصحيح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم"، قال: "فوقع ذلك في قلبي فأخذت في جمع الصحيح".[84]

الثالث: قال: وروينا بالإسناد الثابت عن محمد بن سليمان بن فارس قال سمعت البخاري يقول: "رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وكأني واقف بين يديه وبيدي مروحة أذب بها عنه، فسألت بعض المعبرين فقال لي: "أنت

([83]) فقه الدعوة في صحيح البخاري 28/1

([84]) تاريخ بغداد 8/2

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

تذب عنه الكذب فهو الذي حملني على إخراج الجامع الصحيح". وقال ما كتبت في كتاب الصحيح حديثا إلا اغتسلت قبل ذلك وصليت ركعتين. وقال:

"خرجته من نحو ستمائة ألف حديث وصنفته في ست عشرة سنة وجعلته حجة فيما بيني وبين الله تعالى".

وقال: "ما أدخلت فيه إلا صحيحا وما تركت من الصحيح أكثر حتى لا يطول. وقال: صنفت كتابي الجامع في المسجد الحرام وما أدخلت فيه حديثا حتى استخرت الله تعالى وصليت ركعتين وتيقنت صحته".

قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى: والجمع بين هذا وبين ما روى أنه كان يصنفه في البلاد أنه ابتدأ تصنيفه وترتيب أبوابه في المسجد الحرام، ثم كان يخرج الأحاديث بعد ذلك في بلده وغيرها، ويدل عليه قوله أنه أقام فيه ست عشرة سنة، فإنه لم يجاور بمكة هذه المدة كلها.

تسميته بالجامع

سمى الإمام البخاري كتابه بالجامع وغرضه من هذا – فيما يبدو لي – أنه يريد به أربعة أمور، أو واحد منها:

أراد بهذه التسمية أن يجعله كتابا جامعا لعلوم الشريعة من عقيدة وفقه وتفسير ومغازي وزهد ورقائق وفضائل وآداب لأن من سبقه من المؤلفين كان يؤلف في فن واحد لا يجاوزه فالسنن والجوامع والموطآت كانت تركز على الفقه، والسير والمغازي بالتاريخ والأحداث، والتفسير بالآيات القرآنية، والأجزاء الحديثية لكل جزء باب من أبواب العلم لا يجاوزه ولا يتعلق بغير، فجاء الإمام البخاري وسمى كتابه الجامع وجمع كل تلك الفنون فكان حقا جامعا لها.

والسبب الثاني: أن الأحاديث الصحيحة كانت مبثوثة في الكتب ولا يوجد كتاب جامع لها فأراد الإمام البخاري أن يجمعها في هذا الكتاب، لكن قد يقول قائل يرد على هذا السبب بما ذكره الإمام البخاري أنه ترك كثيرا من الأحاديث الصحيحة فما كل الأحاديث الصحيحة حواها كتابه فليس إذن كتابه جامع للأحاديث الصحيحة، ونرد عليه بانه ذكر أنه" مختصر " فقد قيده بهذا القيد فأصل كتابه اسمه" الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه".

www.alukah.net

فقد أراد أن يجعله جامعا للأحاديث الصحيحة ولما أن علم أنه لن يحيط بها فقد قيده بالمختصر: أي بما يتحقق شرطه فيه للأحاديث الصحيحة.

فهو إذن جامع لكل الأحاديث الصحيحة بشروطها عنده. لذا سماه "الجامع الصحيح".

السبب الثالث: لعل أيضا السبب الذي جعله يسمي كتابه بالجامع هو التيمن بما أُرشد إليه في مجلس شيخه إسحاق بن راهويه فقد قال: "كنت عند إسحاق بن راهويه فقال لنا بعض أصحابنا : لو جمعتم كتابا مختصرا لسنن النبي صلى الله عليه وسلم فوقع ذلك في قلبي فأخذت في جمع هذا الكتاب يعني الجامع[85]" فقد سماه الجامع مسترشدا بكلمة:" لو جمعتم.."

السبب الرابع: أنه أراد أن يستقصي أحوال النبي صلى الله عليه وسيرته وعبادته ومعاملاته وأخلاقه وزهده وسيرته ومغازيه وجميع أحواله وذلك لما أن تعددت الكتب وكثرت المؤلفات فيما نقل من حياة النبي صلى الله عليه وسلم وكانت متعددة الفنون ولا يوجد كتاب محيط صحيح جامع لأحوال النبي صلى الله عليه وسلم ندب نفسه للقيام بهذه المهمة فنقل كل ما وصل إليه من قول النبي صلى الله عليه وسلم أو فعله أو تقريره أو صفاته بشروط هو اشترطها في غاية الدقة والضبط والتحري ولذا سماه "الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه "فكأن قصده "الجامع لأمور الرسول وسننه وأيامه" وهذا هو الأقرب للصواب فيما يبدو لي والله أعلم.

هذا بالنسبة لتسميته بالجامع أما تعليل بقية أسماء عنوان كتابه فقد قال الشيخ عبدالحق الهاشمي: إنما سماه جامعا لأنه جمع فيه الفنون الثمانية: فن الحديث، وفن العقائد، وفن الفقه، وفن السيرة، وفن الرقاق، وغيرها، وسماه مسندا لأنه أورد فيه الأحاديث المسندة إلى النبي صلى الله عليه وسلم، وما أورد فيه عن الصحابة والتابعين ومن بعدهم، ومن المعلقات فإنما هو بالتبع، وسماه صحيحًا لأنه أورد فيه ما صح عنده، وسماه مختصرًا؛ لأنه خرجه من ستمائة ألف حديث واختصره منها...[86]".

([85])" تاريخ بغداد " 2 / 9، و" تهذيب الكمال ": 1169، و" طبقات السبكي " 2 / 221.

([86]) قمر الأقمار الطالع من مشارق الأنوار ص24. نقلا عن كتاب "عادات الإمام البخاري في صحيحه" للشيخ نفسه، من مقدمة الكتاب.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

سمات الصحيح

ولهذا الكتاب سمات أهلته وميزته عن غيره قال أبو بكر كافي في كتابه منهج البخاري وهو يتحدث عن هذه السمات:

"كان من سبق من العلماء يجمع في كتابه الأخبار ولا يلتزم الصحة. فيذكر الصحيح والحسن والضعيف وقد يكون فيها الموضوع أحيانًا، ولكن الإمام البخاري اقتصر في جامعه على الصحيح فقط لذا سماه الجامع الصحيح.

• كان من سبق من العلماء يجمع في كتابه الأحاديث المرفوعة والآثار الموقوفة، والمتصل والمنقطع على حد سواء، لكن البخاري خصّص كتابه لما ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأسانيد المتصلة، وإن كان يذكر فيه الآثار والموقوفات على سبيل التبع للاستشهاد، وقد حوى جملة كثيرة من الموقوفات والآثار وعادة يرويها معلّقة، فهي ليست مقصودة أصالة وإنما بالتبع والاستطراد، لذا سمى البخاري كتابه الجامع الصحيح المسند.

• كان المصنفون يهتمون بمزج الحديث بالفقه كما فعل مالك في موطئه، ويذكرون آراء العلماء وفقهاء التابعين والأمصار، والإمام البخاري لم يهمل هذه الناحية، و لم يتوسع في ذكر فقه الحديث وإنما سلك طريقة مختصرة وهي أنه يضمن فقه الحديث في الترجمة حتى شاع على ألسنة العلماء أن فقه الإمام البخاري في تراجمه، ويعضد ما يذهب إليه بالآيات والآثار ثم يذكر أهم ما ورد في الباب من الأحاديث المرفوعة المسندة".[87]

([87]) منهج الإمام البخاري، أبوبكر كافي 35/1

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

منزلة الصحيح

احتفى العلماء كثيرا بهذا المصنف وعدوه المصنف الأول بعد القرآن وفضلوه على غيره من كتب الحديث، قال الإمام النووي رحمه الله: " اتفق العلماء- رحمهم الله تعالى- على أن أصحَّ الكتب بعد القرآن العزيز الصحيحان: البخاري ومسلم، وتلقتهما الأمة بالقبول، وكتاب البخاري أصحهما، وأكثرهما فوائد ومعارف ظاهرة وغامضة، وقد صح أن مسلما كان ممن يستفيد من البخاري، ويعترف بأنه ليس له نظير في علم الحديث، وهذا الذي ذكرناه من ترجيح كتاب البخاري هو المذهب المختار الذي قاله الجمهور وأهل الإتقان والحذق والغوص على أسرار الحديث"[88].

وقال الذهبي في تاريخ الإسلام: "أما جامع البخاري الصحيح فأجل كتب الإسلام وأفضلها بعد كتاب الله تعالى فلو رحل الشخص لسماعه من ألف فرسخ لما ضاعت رحلته..[89]"

وما أحسن قول البرهان القيراطي رحمه الله:

حدِّث وشنّف بِالْحَدِيثِ مسامعي... فَحَدِيث من أَهْوى حُليُّ مَسامعي

لله مَا أحلى مُكرّرهُ الَّذِي... يَحلو ويعذبُ فِي مذاقِ السَّامع

([88]) شرح النووي على صحيح مسلم 1/ 14. وانظر: علوم الحديث، لابن الصلاح، ص 18، وتهذيب الأسماء واللغات للنووي، 1/ 74، وهدي الساري لابن حجر، ص 11.

([89]) تاريخ الإسلام 140/6

www.alukah.net

بِسَمَاعِهِ نلْت الَّذِي أمّلتَه... وَبَلغتَ كل مطالبي ومسامعي

وطلعتَ فِي أفق السَّعَادَة صاعدا... فِي خير أَوْقَاتٍ وأسعدِ طالعِ

وَلَقَد هُديتَ لغايةِ الْقَصْد الَّتِي... صحّت أدلتهُ بِغَيْر ممانعِ

وَسمعتَ نصا للْحَدِيث مُعَرفا... مِمَّا تضمنه كتاب الْجَامِع

وَهُوَ الَّذِي يُتْلَى إِذا خطب عرى... فتراه للمحذور أعظم دَافِعِ[90]

وقال عنه علاء الدين بن أيبك الدمشقي يصفه ويصف قوّته ويتحدّث عن بركته[91]:

هَذَا الْكتاب الَّذِي مَا شَاب قوّته... ضعفٌ وَصِحَّته مَا تعرف السّقما

هَذَا الْكتاب الَّذِي نرجو الشِّفَاء بِهِ... هَذَا الْكتابُ بِهِ نستدفعُ الألما

هَذَا الْكتابُ الَّذِي فِيهِ الدَّوَاءُ لنا... هَذَا الْكتاب الَّذِي للداءِ قد حسما

هَذَا الْكتابُ الَّذِي قد جَاءَ جَوْهَرَة... غلت لَهُ قيمَة لما عَلَت قيمًا

من رَوْضَةٍ كَانَ فِيهَا الشَّيْخ أَلّفهُ... هبّت لَهُ نسمَةٌ قد أحيت النسما

لَا يستلذّ بِهِ إِلَّا الْخَبِير وَلَا... يحلو مكررهُ إِلَّا لمن فهما

كم قد كشفنا بِهِ من كربَةٍ عَظمت... كم قد طرحَنا بِهِ من حَادثٍ هجما

كَأَن أسطرَهُ من عنبرٍ رُقِمت... كَأَن أَلْفَاظهُ زهر قد ابتسما

وقال بعضهم في أبيات رائعة تفيض جمالًا:

وفتى بُخارا عندَ كلِّ مُحدّثٍ... هو في الحديثِ جُهينةُ الأخبارِ

([90]) إرشاد الساري 29/1

([91]) الحطة في ذكر الكتب الستة ص 118.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

لكتابهِ الفضلُ المبينُ لأنهُ... أسفاره في الصّبحِ كالأسفارِ

كم أزهِرت بِحديثهِ أوراقهُ... مثل الرياضِ لِصاحبِ الأذكارِ

ألفاتهُ مثل الغصونِ إذا بدَت... من فوقها الهمزاتِ كالأطيارِ

بِجوامعِ الكلمِ التي اجتمعت بهِ... مُتفرّقات الزّهرِ والأزهارِ[92]

ولمنزلته العظيمة فقد كان العلماء يتسابقون إلى تدريسه والحث على ختمه مرارًا وتكرارًا والبحث عن نفائسه، والغوص في مكنوناته، وسبر أغوار فقهه، بل بعضهم رأى النبي صلى الله عليه وسلم في منامه يرشده لتدري هذا الكتاب، قال زيد المروزي : "كنت نائما بين الركن والمقام فرأيت النبي -صلى الله عليه وسلم- في المنام فقال لي يا أبا زيد إلى متى تدرس كتاب الشافعي وما تدرس كتابي، فقلت يا رسول الله وما كتابك، قال: جامع محمد بن إسماعيل"[93].

وما أجمل ما قاله بعضهم وهو يتحدث عن مرتبته ومكانته وقوة أسانيده وإجماع العالمين على فضله [94]:

صَحِيْحُ البُخَارِيِّ لَوْ أَنْصَفُوهُ... لَمَا خُطَّ إِلَّا بِمَاءِ الذَّهَبْ

هُوَ الفَرْقُ بَيْنَ الهُدَى وَالعمَى... هُوَ السَّدُّ بَيْنَ الفَتَى وَالعَطَبْ

أَسَانِيْدُ مِثْلُ نُجُومِ السَّمَاءِ... أَمَامَ مُتُوْنٍ كَمِثْلِ الشُّهُبْ

بِهِ قَامَ مِيْزَانُ دِيْنِ الرَّسُوْلِ... وَدَانَ بِهِ العُجْمُ بَعْدَ العَرَبْ

حِجَابٌ مِنَ النَّارِ لاَ شَكَّ فِيْهِ... تَمَيَّزَ بَيْنَ الرِّضَى وَالغَضَبْ

وَسِتْرٌ رَقِيْقٌ إِلَى المُصْطَفَى... وَنصٌّ مُبِيْنٌ لِكَشْفِ الرِّيَبْ

([92]) إرشاد الساري 30/1

([93])رواه القزويني في "التدوين" 2/ 45 - 46، والذهبي في "سير أعلام النبلاء" 12/ 438، 16/ 314 - 315، وابن حجر في "هدي الساري" ص 489، وفي "تغليق التعليق" 5/ 422. وقال: إسناد هذِه الرواية صحيح، ورواتها ثقات أئمة،

([94]) سير أعلام النبلاء 120/10

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

فَيَا عَالِمًا أجمع العالمون... على فضل رتبته في الريب

سَبَقْتَ الأَئِمَّةَ فِيْمَا جَمَعْتَ... وَفُزْتَ عَلَى رَغْمِهِمْ بِالقَصَبْ

نَفَيْتَ الضَّعِيْفَ مِنَ النَّاقِلِيْنَ... وَمَنْ كَانَ مُتَّهَمًا بِالكَذِبْ

وَأَبْرَزْتَ فِي حُسْنِ تَرْتِيْبِهِ... وَتَبْوِيْبِهِ عَجَبًا لِلْعَجَبْ

فَأَعطَاكَ مَولاَكَ مَا تَشْتَهِيْهِ... وَأَجْزَلَ حظك فيما وهب

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

يقول القسطلاني في بداية شرحه لصحيح البخاري واصفا إياه:

وإن كتاب البخاري الجامع قد أظهر من كنوز مطالبها العالية إبريز البلاغة، وأبرز وحاز قصب السبق في ميدان البراعة وأحرز، وأتى من صحيح الحديث وفقهه بما لم يسبق إليه ولا عرّج أحد عليه، فانفرد بكثرة فرائد فوائده وزوائد عوائده، حتى جزم الراوون بعذوبة موارده، فلذا رجح على غيره من الكتب بعد كتاب الله، وتحرّكت بالثناء عليه الألسن والشفاه..[95].

ولأن هذا الكتاب ما هو إلا قول النبي المختار صلى الله عليه وسلم فقد جعل الله مباركا وهذه البركة لمسها كثير من العلماء فقد قال الحافظ ابن كثير:

وقال الحافظ عماد الدين بن كثير: وكتاب البخاري الصحيح يستسقى بقراءته الغمام، وأجمع على قبوله وصحة ما فيه أهل الإسلام[96].

وقال الإمام القدوة أبو محمد بن أبي جمرة المالكي: "قال لي من لقيته من العارفين عن من لقي من السادة المقر لهم بالفضل: أن صحيح البخاري ما قرئ في شدة إلا فرجت، ولا رُكب به في مركب فغرق، قال وكان مجاب الدعوة وقد دعا لقارئه رحمه الله تعالى وحكي: أنه قرئ مرة في حمص لرفع البلاء فرفعه الله". [97].

وقَالَ الشَّيْخ عبد الْحق الدهلوي فِي أشعة اللمعات: قَرَأَ كثير من الْمَشَايِخ وَالْعُلَمَاء والثقات صَحِيح البُخَارِيّ لحُصُول المرادات وكفاية الْمُهِمَّات وَقَضَاء الْحَاجَات وَدفع البليات وكشف الكربات وَصِحَّة الْأَمْرَاض وشفاء المرضى عِنْد المضايق والشدائد فَحصل مُرَادهم وفازوا بمقاصدهم ووجدوه كالترياق مجربا وَقد بلغ هَذَا الْمَعْنى عِنْد عُلَمَاء الحَدِيث مرتبَة الشُّهْرَة والاستفاضة[98]

([95]) شرح القسطلاني على صحيح البخاري المسمى بإرشاد الساري 2/1

([96]) البداية والنهاية لابن كثير 24/11

([97]) شرح البخاري للسفيري 55/1، إرشاد الساري 29/1

([98])الحطة في ذكر الصحاح الستة ص179.

www.alukah.net

وَنقل السَّيِّد جمال الدّين الْمُحدث عَن أستاذه السَّيِّد أصيل الدّين أَنه قَالَ:" قَرَأت صَحِيح البُخَارِيّ نَحْو عشْرين وَمِائَة مرّة فِي الوقائع والمهمات لنَفْسي وَلِلنَّاسِ الآخرين فَبِأَي نِيَّة قرأته حصل الْمَقْصُود وَكفى الْمَطْلُوب انْتهى..[99]

وكيف لا تكون له البركة وكان مصنفه لا يكتب حديثا واحدا فيه إلا واغتسل وصلى ركعتين واستخار الله تعالى وتيقن صحته؟

إنه كتاب مبارك لأن مصنفه بعد أن أكمله دعا الله أن ينفع به وأن يكون مباركا، ودعا لقارئه..

عدد أحاديث صحيح البخاري

حرر الحافظ ابن حجر عدد الأحاديث المرفوعة في صحيح البخاري والمعلقة، وأوضح ذلك في مقدمة الفتح إجمالا وتفصيلا، وإليك خلاصة ما انتهي إليه في ذلك على سبيل الإجمال:

1- عدد الأحاديث المرفوعة الموصولة بما فيها المكررة 7397 حديثا.

2- عدد الأحاديث المرفوعة المعلقة بما فيها المكررة 1341 حديثا.

3- عدد ما فيه من المتابعات والتنبيه على اختلاف الروايات 344 حديثا.

4- عدد ما فيه من الموصول والمعلق والمتابعات المرفوعة بالمكررة 9082 حديثا.

5- عدد الأحاديث المرفوعة الموصولة بدون تكرار 2602 حديثا.

6- عدد الأحاديث المعلقة بدون تكرار 159 حديثا.

7- عدد الأحاديث المرفوعة موصولة أو معلقة بدون تكرار 2761 حديثا.

وهذه الأعداد إنما هي في المرفوع خاصة دون ما في الكتاب من الموقوفات على الصحابة والمقطوعات عن التابعين ومن بعدهم.

([99]) الحطة في ذكر الصحاح الستة ص179.

www.alukah.net

بدائع الصحيح

من بدائع (الصحيح) أنه بدأ بالتركيز على العقيدة التي هي بوابة الدخول إلى الإسلام وإيضاح أنوارها فبدأ بـــ (بدء الوحي) و (الإيمان) وختمه بـــ (الاعتصام) و (التوحيد). ثم إنه رتب الأحكام الفقهية ترتيبا بديعا، وجاء بالسير والمغازي والفضائل والآداب والتفسير، وزينه بذكر الآداب والمواعظ في كتاب (الأدب) و (الرقاق) فجعله محبّرا يغريك جماله، وفخما يشدّك جلاله..

ومن بدائعه أنه قدّم لنا في كتابه لوحة جميلة زينها بمختلف العلوم الإسلامية فخص القرآن بكتابين في (الفضائل) و (التفسير)، واهتم باللغة، وأورد الأنساب والتاريخ، وأشار إلى الناسخ، وإمكان الترجيح، كما زين (جامعه) بالحِكَم البديع والفقه الراسخ، فكانت أقواله في غاية الدقة، وتراجمه في غاية الحسن والإبهار حتى سار في الآفاق مشارقا ومغاربا قول العلماء: "فقه البخاري في تراجمه"، فهو الذي فتح لأهل العلم الاستشهاد بقطعة من الحديث اقتطاع الأحاديث على حسب التنزيل الفقهي، وإيراده بحسب الحاجة بإجراء هندسة بديعة عليه تذهل العقول، كيف وقد أورد زواج النبي صلى الله عليه وسلم من أمِّنا صفية رضي الله عنها أربعين مرة، وقد ضمّن أبواب الصحيح تراجم "حيَّرت الأفكار، وأدهشت العقول والأبصار" كما قال ابن حجر رحمه الله، لا سيما وهو يؤثر الاستدلال الخفيَّ على الجلي؛ "لغرض شحذ الأذهان في إظهار مُضْمَرِهِ واستخراج خَبِيئِهِ"؛ ولكل ترجمة من تراجمه حكاية بديعة، وقصة بليغة، وبعضها وقف عند جلالها العلماء، وأشاد ببيانها الحكماء، وصنف فيها الفقهاء..

فإذا انظم إلى جمال تراجمه صحة أسانيده التي بدت كالشموس المشرقة حتى يثبت لنا صحة تلك المتون عرفت أنه في "جامعه" جمع فأوعى، وبلغ المنتهى.

إمام خاض بحور الأسانيد أتم خوض، وتفنن في إجادة الترتيب والصياغة تفنن الأزهار في الروض، لم يترك طريقًا بديعا للحديث إلا سلكه، ولا وجهًا من وجوه الاجتهاد في الترجمة إلا استدركه، فأبان عن ذهن حاضر الوقاد، وذكاء أورده على الحديث أحسن إيراد، فأصبح ترتيبه أنيقا، وحبكه فائقا رقيقا فكان حاله:

www.alukah.net

تصدّيتُ في إتعابِ فِكري لِجمعهِ... فجاءَ كتابًا في البَها لا يُشاركُ

وما أحسنَ ما وصفه به صاحب (جواهر البخاري) حيث قال: "صار حَرِيًّا أن يُكتب بسواد المسك على بياض الكافور، ويُعلّق بخيوط النور، على نحور الحور ووجوه البدور".

الأيام الأخيرة في حياة البخاري

لما رجع الإمام البخاري إلى بخارى نصبت له القباب على فرسخ من البلد واستقبله عامة أهلها ونثر عليه الدراهم والدنانير وبقي مدة يحدثهم، فأرسل إليه أمير البلد خالد بن محمد الذهلي نائب الخلافة العباسية يتلطف معه ويسأله أن يأتيه بالصحيح ويحدثهم به في قصره، فامتنع البخاري من ذلك وقال لرسوله: قل له أنا لا أذل العلم ولا أحمله إلى أبواب السلاطين، فإن كانت له حاجة إلى شيء منه فليحضر إلى مسجدي أو داري فإن لم يعجبك هذا فأنت سلطان فامنعني من المجلس ليكون لي عذر عند الله يوم القيامة أي لا أكتم العلم. فحصلت بينهما وحشة فأمره الأمير بالخروج عن البلد فدعا عليه وكان مجاب الدعوة، فلم يأت شهر حتى ورد أمر الخلافة بأن ينادى على خالد في البلد فنودي على خالد على أتان وحبس إلى أن مات، و لم يبق أحد ممن ساعده إلا ابتلي ببلاء شديد.

وقد ورد في تاريخ بغداد ما نصه:

كان سبب مفارقة أبي عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري البلد- يعني بخارى- أن خالد بن أحمد الذهلي الأمير خليفة الطاهرية ببخارى سأل أن يحضر منزله فيقرأ «الجامع» و «التاريخ» على أولاده فامتنع أبو عبد الله عن الحضور عنده، فراسله أن يعقد مجلسا لأولاده لا يحضره غيرهم فامتنع عن ذلك أيضا وَقَالَ: لا يسعني أن أخص بالسماع قوما دون قوم، فاستعان خالد بن أحمد بحريث بن أبي الورقاء وغيره من أهل العلم ببخارى عليه، حتى تكلموا في مذهبه، ونفاه عن البلد، فدعا عليهم أَبُو عبد الله مُحَمَّد بن إِسْمَاعِيل قَالَ: اللهم أرهم ما قصدوني به في أنفسهم وأولادهم وأهاليهم. فأما خالد فلم يأت عليه إلا أقل من شهر حتى ورد أمر الظاهرية بأن ينادى عليه، فنودي عليه وهو على أتان، وأشخص على أكاف، ثم صار عاقبة أمره إلى ما قد اشتهر

www.alukah.net

وشاع. وأما حريث بن أبي الورقاء فإنه ابتلى بأهله، فرأى فيها ما يجل عن الوصف. وأما فلان أحد القوم- وسماه- فإنه ابتلي بأولاده، وأراه الله فيهم البلايا[100].

ولما خرج البخاري من بخارى كتب إليه أهل سمرقند ليقدم إلى بلدهم فسار إليهم، فلما كان بخَرتَنْك وهي على فرسخين من سمرقند بلغه أنه قد وقع بينهم بسببه فتنة فقوم يريدون دخوله وآخرون يكرهونه، وكان له أقرباء بها فنزل عندهم حتى ينجلي الأمر، وداخلته غمة وروي أنه ضجر ليلة فدعا بعد أن فرغ من صلاة الليل اللهم قد ضاقت علي الأرض بما رحبت فاقبضني إليك فأقام أياما فمرض حتى وجه إليه رسول من أهل سمرقند يلتمسون خروجه إليهم، فأجاب وتهيأ للركوب ولبس خفيه وتعمم فلما مشى قدر عشرين خطوة أو نحوها إلى الدابة ليركبها قال: أرسلوني فقد ضعفت، فأرسلوه فدعا بدعوات ثم اضطجع فقضى.

فسال عرق كثير لا يوصف وما سكن منه العرق حتى أدرج في أكفانه. فمات في ذلك الشهر ليلة السبت ليلة عيد الفطر سنة ست وخمسين ومائتين عن اثنتين وستين سنة إلا ثلاثة عشر يوما.[101]

رائحة مسك الكرامات

لما صلي عليه ووضع في حفرته فاح من تراب قبره رائحة طيبة كالمسك ودامت أياما، وجعل الناس يختلفون إلى قبره مدة يأخذون منه.

قَالَ مُحَمَّدُ بنُ أَبِي حَاتِمٍ: "سَمِعْتُ أَبَا مَنْصُوْرٍ غَالِبَ بنَ جِبْرِيْلَ، وَهُوَ الَّذِي نَزَلَ عَلَيْهِ أَبُو عَبْدِ اللهِ يَقُوْلُ عن الإمام البخاري:

لَمَّا دَفَنَّاهُ فَاحَ مِنْ تُرَابِ قَبْرِهِ رَائِحَةٌ غَالِيَةٌ أَطيبُ مِنَ المِسْكِ فَدَام ذَلِكَ أَيَّامًا ثُمَّ علَتْ سوَارِيٌّ بِيْضٌ فِي السَّمَاءِ مستطيلَةٌ بِحِذَاءِ قَبْرِهِ فَجَعَلَ النَّاسُ يَخْتَلِفونَ وَيتعجَّبُوْنَ، وَأَمَّا التُّرَابُ فَإِنَّهُم كَانُوا يَرْفَعُوْنَ عَنِ القَبْرِ حَتَّى ظَهرَ القَبْرُ، وَلَمْ نكنْ نقدِرُ عَلَى حفظِ القَبْرِ بالحراس، وغلبنا عَلَى أَنفُسِنَا، فنصبنَا عَلَى القَبْرِ خَشَبًا مُشَبَّكًا، لَمْ يَكُنْ

([100]) الخبر في تاريخ بغداد 2 / 34 وسير أعلام النبلاء 12 / 466 وتهذيب الكمال 16 / 106 - 107

([101]) تهذيب الكمال 16 / 107 وسير أعلام النبلاء 12 / 468 وتاريخ بغداد 2 / 34

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

أَحَدٌ يَقْدِرُ عَلَى الوُصُوْلِ إِلَى القَبْرِ، فَكَانُوا يَرْفَعُوْنَ مَا حولَ القَبْرِ مِنَ التُّرَابِ، وَلَمْ يَكُوْنُوا يخلصُوْنَ إِلَى القَبْرِ وَأَمَّا رِيْحُ الطِّيبِ فَإِنَّهُ تدَاومَ أَيَّامًا كَثِيْرَةً حَتَّى تَحَدَّثَ أَهْلُ البَلْدَة، وَتعجَّبُوا مِنْ ذَلِكَ [102]".

ولا يبعد أن تكون هذه الرائحة رائحة صيامه الذي صامه في الحياة وأخفاه عن الناس، فأظهره الله لهم بعد موته، إظهارًا لفضله وعظيم منزلته عنده، أو رائحة فيه الذي حدث الناس به حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو رائحة جسده الذي طاف البلدان لجمع كتابه الصحيح..

لقد أظهر الله هذه الكرامة بعد موته ليبين للناس منزلته العظيمة ولله در من قال:

وكاتمُ الحُبِ يومَ البينِ مُنهتكٌ... وصاحبُ الوجدِ لا تَخفَى سرائِرهُ

لقد نمت ريح الصدق عليه، وما أسر أحد سريرة إلا ألبسه الله إياها ففاحت منه.

وقال الطواويسي: رأيت النبي -صلى الله عليه وسلم- ومعه جماعة من أصحابه وهو واقف في موضع فسلمت عليه فرد علي السلام فقلت: ما وقوفك هنا يا رسول الله؟ قال أنتظر محمد بن إسماعيل، قال فلما كان بعد أيام بلغني موته فنظرت فإذا هو في الساعة التي رأيت فيها النبي -صلى الله عليه وسلم-،[103] ولما ظهر أمره بعد وفاته خرج كثير ممن خالفه إلى قبره وأظهروا التوبة والندامة.[104]

مؤلفاته

وأما تآليفه فإنها سارت مسير الشمس ودارت في الدنيا مشرقة ومغربة، وأجلّها وأعظمها الجامع الصحيح، وقد ذكر القسطلاني كثيرًا من مؤلفاته منها الأدب المفرد ومنها برُّ الوالدين، ومنها التاريخ الكبير الذي صنفه كما مرّ عند قبر النبي -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- في الليالي المقمرة، ومنها التاريخ الأوسط، ومنها التاريخ الصغير، ومنها خلق أفعال العباد الذي صنفه بسبب ما وقع بينه وبين الذهلي، ومنها كتاب الضعفاء، قال الحافظ ابن حجر: وهذه التصانيف موجودة مروية لنا بالسماع والإجازة.

([102]) سير أعلام النبلاء 119/10

([103]) تاريخ بغداد 32/2

([104]) سير أعلام النبلاء 119/10

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

ومن تصانيفه الجامع الكبير ذكره ابن طاهر، والمسند الكبير والتفسير الكبير ذكره الفربري، وكتاب الأشربة ذكره الدارقطني في المؤتلف والمختلف، وكتاب الهبة ذكره ورّاقه، وأسامي الصحابة ذكره أبو القاسم بن منده، وكتاب المبسوط ذكره الخليل في الإرشاد، وكتاب الكنى ذكره الحاكم أبو أحمد ونقل منه، ورفع اليدين في الصلاة، والقراءة خلف الإمام، وكتاب الفوائد ذكره الترمذي في أثناء كتاب المناقب من جامعه[105].

وقد طبع من هذه الكتب غير الصحيح: الأدب المفرد، ورفع اليدين في الصلاة، والقراءة خلف الإِمام، والتاريخ الكبير، والتاريخ الصغير، وخلق أفعال العباد[106].

طلابه

وأما الآخذون عن البخارى، فأكثر من أن يحصروا، وأشهر من أن يذكروا. وقد قال الفربري: سمع الصحيح من البخارى سبعون ألف رجل، فما بقى أحد يرويه غيرى.

وقد روى عنه خلائق غير ذلك، وقد قدمنا أنه كان يحضر مجلسه أكثر من عشرين ألفًا يأخذون عنه، وممن روى عنه من الأئمة الأعلام: الإمام أبو الحسين مسلم ابن الحجاج صاحب الصحيح، وأبو عيسى الترمذي، وأبو عبد الرحمن النسائي، وأبو حاتم، وأبو زرعة الرازيان، وأبو إسحاق إبراهيم بن إسحاق الحربي الإمام، وصالح بن محمد جزرة الحافظ، وأبو بكر بن خزيمة، ويحيى بن محمد بن صاعد، ومحمد بن عبد الله مطين، وكل هؤلاء أئمة حفاظ، وآخرون من الحفاظ غيرهم. قال الخطيب: آخر مَن حدَّث ببغداد عن البخارى: الحسين بن إسماعيل المحاملى[107].

([105]) إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري للقسطلاني 36/1

([106]) انظر: سيرة الإمام البخاري، لعبد السلام المباركفوري، ص 146 - 155، والإمام البخاري وصحيحه الجامع، لأحمد فريد، ص 71 - 73. فقه الدعوة في صحيح البخاري، سعيد القحطاني 25/1

([107]) تهذيب الأسماء واللغات للنووي 73/1

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

عناية الأمة الإسلامية بصحيح الإمام البخاري

اشتغل الإمام البخاري في تأليف صحيحه وتصنيفه وجمعه وترتيبه وتبييضه وتنقيحه، مدة بلغت ستة عشر عامًا، وهي تستغرق مدة رحلاته العلمية إلى الأقاليم والأقطار الإسلامية، وقد نال الجامع الصحيح للبخاري عناية كبيرة من الأمة الإسلامية وعلمائها؛ فلم يحظَ بهذه العناية كتاب آخر بعد كتاب الله -عز وجل- وتمثلت هذه العناية في عدة جوانب؛ منها: توثيق أحاديثه، والكشف عن صحتها، ونقله إلينا موثقًا عبر العصور السابقة، دون مساس بالتحريف أو التغيير، ومن أجود شروحه وأقربها تناولًا، وأحسنها اختصارًا مع كثرة الفائدة، "إرشاد الساري" شرح العلامة أحمد بن محمَّد بن أبي بكر القَسْطَلّاني القاهِري الشافعي،

وهو شرح مختصر لـــ(صحيح البخاري)، محرر مهذب منقح، مأخوذ بجملته من شرحي العيني وابن حجر، وميزته في ضبط ألفاظ الصحيح، سواء ما كان منها متعلقًا بالمتون، أو ما كان منها متعلقًا بالأسانيد وصيغ الأداء، لا يكاد يفلت منه كلمة واحدة، وشرحه الزركشي وسمى شرحه: "التنقيح لألفاظ الجامع الصحيح"، وشرحه الشيخ محمَّد سالم المَجْلِسي في أربعة عشر مجلدًا ضخامًا وسماه "النهر الجاري".

وشرحه العلامة شمس الدين محمَّد بن يوسف بن علي بن محمَّد بن سعيد الكِرْماني، فشرحه بشرح مفيد، جامع لفرائد الفوائد، وزوائد العوائد، وسماه "الكواكب الدراري" لكن قال الحافظ ابن حَجَر في "الدرر الكامنة": وهو شرح مفيد، على أوهام فيه في النقل؛ لأنه لم يأخذه إلا من الصحف، وكذا شرحه ولده التّقِي يحيى، مستمدًا من شرح أبيه[108].

وقد استفاد كثيرًا ابن حجر من هذا الشرح حيث اعتمد عليه غير أنه انتقده في كصير من المواطن بسبب الأوهام التي وقع فيها الكرماني.

وشرحه الخطابي، وابن بطال، وابن الملقن، وابن المنير، والأصفهاني، والتيمي، والحلبي، والبلقيني، والكوراني مؤدب محمد الفاتح، وشرحه العلامة بدر الدين العَيْنِيّ وسماه "عمدة القارى" وقد رتبه ترتيبًا بديعًا، لا سيما في ربعه الأول، وفي ربعه الثاني اختصر، ثم في نصفه الأخير أجمل ولو استمر على نفس النسق من البداية لكان في

([108]) كوثر المعاني الدراري 108/1

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

غاية الجمال لكن لعله اعتراه الفتور، وكذا شرحه العلامة بدر الدين الدَّمامِيني، وسماه "مصابيح الجامع"، وشرحه الحافظ الجلال السُّيوطِيّ في تعليق لطيف قريب سماه "التوشيح على الجامع الصحيح"، وممن رام شرحه ولم يكمله الإمام النووي والحافظ ابن كثير، وابن رجب الحنبلي حيث شرحه وسماه "فتح الباري" ولم يكمله ولو أكمله لكان من أنفس الشروح إن لم يكن أنفسها ولعل ابن حجر أراد أن يكمله ثم بدا له أن يؤلف مؤلفا خاصا به من جديد وسماه نفس الاسم، وممن شرحه ولم يكمله المَجْد الشِّيرازِيّ اللغوي مؤلف "القاموس"، وشرحه علماء كثر عرج على ذكرهم الجكني في "كوثر المعاني".

أما أوسع شروح صحيح البخاري وأجمعها فهو نجاح القاري لصحيح البخاري

للعلامة يوسف زاده أفندي وقد جمع خلاصة ما تقدمه من الشروح وحوى عيون محاسنها، وجمال معاقدها حيث مكث في تأليفه مؤلفه أربعين سنة، وقد جال المؤلف في شرحه هذا على كل ما طالته يديه من شروح البخاري وكتب الرجال، فأخذ ورد، وانتقى وشد.

وقد ذكر العلماء أنه جمع فيه خلاصة شروح ثلاث أساسية هي: فتح الباري للحافظ ابن حجر - وعمدة القاري للحافظ العيني- وإرشاد الساري للحافظ القسطلاني:

فأخذ من الأول الاهتمام بالإسناد ورجاله وتتبع الطرق والشواهد والمتابعات وبيان الأحكام المستنبطة وضبط الكتب والأبواب وحصر الأحاديث.

وأخذ من الثاني طول النفس اللغوي والتوجيه النحوي.

وأخذ من الثالث طريقته في الشرح المزجي للحديث فجاء كتابًا جامعًا ماتعا نافعا شافيا كافيا في ثلاثين جزءا.

وأحسن هذه الشروح وأشهرها وأبدعها" فتح الباري" حيث قال عنه الإمام الشوكاني لما طلب منه تأليف شرح له:" لا هجرة بعد الفتح"..

وقد مكث في تأليفه ابن حجر خمسًا وعشرين عامًا إذ بدأ فيه سنة (817 هـ) وأكمله سنة (842 هـ) قبل وفاته بعشر سنين، وأولم وليمة كبرى لما أكمله أنفق فيها خمسمائة دينار، وحضر في هذه الوليمة العلماء

www.alukah.net

والكبراء والوجهاء، وقد لقي هذا الشرح ما يستحق من الشهرة والقبول حتى إنه كان يشتري بنحو ثلاثمائة دينار، وانتشر في الآفاق حتى غطت شهرته سائر الشروح، وهو يقع في ثلاثة عشر مجلدًا وقدم له بمقدمة ضخمة في مجلد سماه "هدي الساري مقدمة فتح الباري".

وقد جاء هذا الشرح مكملًا لأصله، جامعا لمسائله، حيث جمع مؤلفه فيه أقوال أكثر من سبقه من العلماء ممن تعرض لمسائل من العلم ذات صلة بصحيح البخاري، وناقشها مناقشة العالم الحاذق اللبيب، فأتى به في حلة قشيبة زاهية حتى عده السيوطي:" أعظم كتب أهل الإسلام".

وسبب شهرته وذيوعه واحتفاء العلماء به وتحلقهم حوله هو ما اشتمل عليه من الفوائد الحديثية والفوائد الفقهية والتعليقات النحوية والاستنباطات الأصولية وأكثر ما يشدك هو تلك القلائد الحديثية التي طرز بها كتابه فهو يجمع طرق الحديث فيتبين لك ترجيح بعضها على بعض فعندما تقرأ كتابه يخيل إليك أنه الأمهات الست قد جمعها في كتابه ومن قرأه واستوعبه وجمع ما فيه فهو أستاذ زمانه في الحديث..

وقد ذكر فؤاد سزكين في كتابه " تاريخ التراث العربي " (56) شرحًا. للجامع الصحيح، بعضها مخطوط وبعضها قد طبع عدة مرات.

أما الكتب المؤلفة حوله شرحًا وتعليقًا وحاشية وغيرها كثيرة، وقد عد صاحب "كشف الظنون" منها اثنين وثمانين[109] ما بين شرح وتعليق وحاشية، وأوصل العدد الكاندهلوي في مقدمة "اللامع" إلى نيف وثلاثين ومائة[110] وأول من قام بشرحه الخطابي ثم توالت الشروح إلى يومنا هذا، ولم يحظ كتاب بالشرح والعناية والتدريس مثله.

وأما غرام العلماء به وترديدهم له وقراءته في مجالسهم فهذا لا يقدر على إحصائه أحد وأظنه لا يوجد عالم من علماء الشريعة المعتبرين إلا وقد شرحه أو قرأه إذ هو واسطة العقد من علوم الشرع لما يحويه من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم.

([109])كشف الظنون" 1/ 545 - 554.

([110])"مقدمة لامع الدراري" 126 - 151.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

وسنعرض هنا سريعا لنماذج لبعض العلماء الذين اعتكفوا عليه قراءة وشرحا وتدريسا فهذا الفيروزآبادي من حبه له وتعلقه به قرأه خمسين مرة، وسليمان بن إبراهيم العلوي الزبيدي محدث اليمن مرّ عليه مائة وخمسين مرة ما بين قراءة وسماع وشرح، وجلال الدين الشيرازي قرأه على الشمس الكرماني أكثر من عشرين مرة، وأصيل الدين الإيجي قال قرأه مائة وعشرين مرة وكلما قرأه لنية حصل له المراد، وابن عطية الأندلسي المفسر اللغوي المجتهد كرره سبعمائة مرة، وأبو الفتح الكرماني قرأه أكثر من خمسين مرة، وابن شحنه المسند قُرئ عليه البخاري سبعين مرة، وأبو المواهب الكتاني قرأه أكثر من عشرين مرة، وعناية الله الحنفي الكشميري قرأ ستة وثلاثين مرة، والبرهان الطربلسي قرأه أكثر من ستين مرة، والزين القاهري الحنفي قرأه خمسا وتسعين مرة، وعدد العلماء الذين اعتنوا به واشتهر ذلك عنهم رُمتُ إحصاءهم فوجدتهم يقربون من أربعمائة عالم ما بين شارح له ومعلق عليه أو قارئ له مشتغل به، أو مدرّس له طلابه.

وقد اختصره بعض العلماء منهم الزبيدي محدث البلاد اليمنية في عصره، وسماه

(التجريد الصريح لأحاديث الجامع الصحيح) ويعرف بمختصر الزبيدي، وقد أكرمنا الله أن أجازنا فيه العلامة محمد الحسن ولد الددو عندما جمعنا الله به في الدوحة أثناء شرحه له في مسجد الإمام، وممن اختصره العلامة المحدث محمد ناصر الدين الألباني وهو مختصر بديع لطيف.

واختصر صحيح البخاري أيضا الدكتور العلامة سعد الشثري وهو عالم متمكن، واختصره ابن أبي صفرة في كتاب سماه:" المختصر النصيح في تهذيب الكتاب الجامع الصحيح" واختصره مصطفى محمد عمارة، وعبدالجليل أبو النصر، وعمر ضياء الدين، لكن أفضل المختصرات هذه هو مختصر الشيخ الألباني، وأشهرها مختصر الزبيدي، ولكل مختصر طريقته ومنهجه.

وعدد الشروح المخطوطة والمطبوعة وكذا الحواشي والغريب وتجريده ووصل معلقاته وتراجم أبوابه، وتراجم رواته، والتعليقات عليه أظنها تقرب من مائة وخمسين مصنفا فيما يبدو لي..

www.alukah.net

الخاتمة

أدرك جيدا أن هذا اللمحة لا تكفي عن الإمام البخاري وكتابه الجامع الصحيح ولكن هي مذكرة بين يدي هذا الإمام العبقري الفطحل المجتهد، وقد كتبتها في ثلاث ليال لما طلب مني الحديث عنه في مجمع شبابي مبارك عن هذا الإمام وألمعيته ونجوميته وماذا صنع من بصمة في هذا الدنيا بكتابه المبارك العظيم.. عسى الله أن ينفع بها وأن يجعلها من العلم النافع الذي ينفع كاتبه ومن يطلع عليه، ولنا جولة أخرى بإذن الله تعالى نتحدث فيها عن منهج الإمام البخاري في كتابه الجامع الصحيح لتكتمل لوحة مضيئة تنير الطريق بين يدي السالك إلى صحيح هذا الإمام المجتهد المحدث..

وأسأل الله أن ينفع بهذا الجهد، وأن يجعله مباركا طيبا سائغا للقارئين، وأن يجعله خالصا مخلصا لوجهه إنه على كل شيء قدير وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله وصحبه أجمعين..

وكتبه عامر الخميسي نزيل مدينة هرجيسا، ليلة الاثنين 16 جمادى الأولى 1443هـ، الموافق 20 ديسمبر2021م.

المصادر والمراجع

1- التوضيح لشرح الجامع الصحيح، المؤلف: ابن الملقن سراج الدين أبو حفص عمر بن علي بن أحمد الشافعي المصري (المتوفى: 804هـ)، المحقق: دار الفلاح للبحث العلمي وتحقيق التراث، الناشر: دار النوادر، دمشق – سوريا، الطبعة: الأولى، 1429 هـ - 2008 م

2- المعلم بشيوخ البخاري ومسلم، المؤلف: أبو بكر محمد بن إسماعيل بن خلفون (المتوفى 636 هـ)، المحقق: أبو عبد الرحمن عادل بن سعد، الناشر: دار الكتب العلمية – بيروت، الطبعة الأولى.

3- اختصار علوم الحديث، المؤلف: أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: 774هـ)، المحقق: أحمد محمد شاكر، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الثانية.

www.alukah.net

4- إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري، المؤلف: أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين (المتوفى: 923هـ)، الناشر: المطبعة الكبرى الأميرية، مصر، الطبعة: السابعة، 1323 هـ.

5- المجالس الوعظية في شرح أحاديث خير البرية صلى الله عليه وسلم من صحيح الإمام البخاري، المؤلف: شمس الدين محمد بن عمر بن أحمد السفيري الشافعي (المتوفى: 956هـ)، حققه وخرج أحاديثه: أحمد فتحي عبد الرحمن، الناشر: دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان، الطبعة: الأولى، 1425 هـ - 2004 م.

6- المختصر في أخبار البشر، المؤلف: أبو الفداء عماد الدين إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد ابن عمر بن شاهنشاه بن أيوب، الملك المؤيد، صاحب حماة (المتوفى: 732هـ)، الناشر: المطبعة الحسينية المصرية، الطبعة: الأولى.

7- النجوم الزاهرة، المؤلف: يوسف بن تغري بردي بن عبد الله الظاهري الحنفي، أبو المحاسن، جمال الدين (المتوفى: 874هـ)، الناشر: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دار الكتب، مصر.

8- تهذيب الأسماء واللغات، المؤلف: الإمام العلامة الفقيه الحافظ أبي زكريا محيي الدين بن شرف النووي، عنيت بنشره وتصحيحه والتعليق عليه ومقابلة أصوله: شركة العلماء بمساعدة إدارة الطباعة المنيرية، دار الكتب العلمية، بيروت – لبنان.

9- تاريخ مدينة دمشق، تصنيف الامام العالم الحافظ أبي القاسم علي بن الحسن ابن هبة الله بن عبد الله الشافعي المعروف بابن عساكر (499هـ - 571 هـ) دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.

10- تاريخ الإسلام وَوَفيات المشاهير وَالأعلام، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: 748هـ)، المحقق: الدكتور بشار عوّاد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي، الطبعة: الأولى، 2003 م.

11- تهذيب التهذيب، المؤلف: أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: 852هـ)، الناشر: مطبعة دائرة المعارف النظامية، الهند، الطبعة: الطبعة الأولى، 1326هـ.

12- تغليق التَّعْلِيق على صَحِيح البُخَارِيّ، الْمُؤلف: أَبُو الْفَضْلِ أَحْمَدُ بْنُ عَلِيٍّ بن مُحَمَّد بن أَحْمد بن حجر الْعَسْقَلَانِي (الْمُتَوفَّى: 852هـ)، الْمُحَقق: سعيد عبد الرَّحْمَن مُوسَى القزقي، الناشر: الْمكتب الإسلامي، دَار عمار - بيروت، عمان – الْأُرْدُن، الطبعة: الأولى، 1405.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

13- تهذيب الكمال في أسماء الرجال المؤلف: يوسف بن عبد الرحمن بن يوسف، أبو الحجاج، جمال الدين ابن الزكي أبي محمد القضاعي الكلبي الْمِزِّيّ (المتوفى: 742هـ)، المحقق: د. بشار عواد معروف، الناشر: مؤسسة الرسالة – بيروت، الطبعة: الأولى، 1400 – 1980.

14- تاريخ بغداد المؤلف: أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت بن أحمد بن مهدي الخطيب البغدادي (المتوفى: 463هـ)، المحقق: الدكتور بشار عواد معروف، الناشر: دار الغرب الإسلامي – بيروت، الطبعة: الأولى، 1422هـ - 2002م.

15- طبقات الحنابلة، المؤلف: أبو الحسين ابن أبي يعلى، محمد بن محمد (المتوفى: 526هـ)، المحقق: محمد حامد الفقي، الناشر: دار المعرفة – بيروت.

16- سير أعلام النبلاء، المؤلف: شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قَايْماز الذهبي (المتوفى: 748هـ) المحقق: مجموعة من المحققين بإشراف الشيخ شعيب الأرناؤوط، الناشر: مؤسسة الرسالة، الطبعة: الثالثة، 1405 هـ / 1985م.

17- فتح الباري شرح صحيح البخاري، المؤلف: أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، الناشر: دار المعرفة - بيروت، 1379، رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي.

18- فقه الدعوة في صحيح الإمام البخاري، المؤلف: سعيد بن علي بن وهب القحطاني، أصل الكتاب: رسالة دكتوراه، من جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الناشر: الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد، الطبعة: الأولى، 1421هـ، عدد الصفحات: 1289

19- كوثَر المَعَاني الدَّرَارِي في كَشْفِ خَبَايا صَحِيحْ البُخَاري، تأليف: الإِمَامِ المُحَدِّثِ العَلَّامَةِ الشَّيْخ مُحمَّد الخِضْر الجَكيني الشِّنقيطي (المتوفى سنة 1354هـ)الجُزْء الأوّلُ، مؤسسة الرسالة.

20- منهج الإمام البخاري في تصحيح الأحاديث وتعليلها (من خلال الجامع الصحيح) المؤلف : أبو بكر كافي، الناشر : دار ابن حزم بيروت، الطبعة : الأولى، 1422 هـ / 2000 م.

21- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، المؤلف: أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن إبراهيم بن أبي بكر ابن خلكان البرمكي الإربلي (المتوفى: 681هـ)، المحقق: إحسان عباس، الناشر: دار صادر – بيروت.

شبكة الألوكة - قسم الكتب

www.alukah.net

المحتويات

المقدمة..... 3
اسمه ومولده ونشأته وأسرته 4
رحلته في طلب العلم ومشايخه..... 10
تصدره للتدريس والتعليم..... 12
قوة حافظته 14
اجتهاده 19
زهده وورعه وعبادته 22
أخلاقه وتعامله وكرمه 26
مذهب البخاري الفقهي 28
إجماع العلماء على إمامته 31
كتابه الجامع الصحيح..... 33
حيازته لقب أمير المؤمنين في الحديث..... 37
أسباب تأليفه لصحيحه 39
تسميته بالجامع..... 40
سمات الصحيح..... 42
منزلة الصحيح..... 43
عدد أحاديث صحيح البخاري 48
بدائع الصحيح 49
الأيام الأخيرة في حياة البخاري..... 50
رائحة مسك الكرامات 51
مؤلفاته 52
طلابه 53
عناية الأمة الإسلامية بصحيح الإمام البخاري..... 54
الخاتمة 58
المصادر والمراجع 58

شبكة الألوكة - قسم الكتب